العلمانية

العلمانية

الأستاذ/محمد قطب .

" العلمانية" هي الترجمة العربية لكلمة Secularism, Secularite في اللغات الأوربية وهي ترجمة مضللة لأنها توحي بأن لها صلة بالعلم ، بينما هي في لغاتها الأصلية لا صلة لها بالعلم ، بل المقصود بها في تلك اللغات هو إقامة الحياة بعيدا عن الدين ، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة .

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة Secularism هي حركة اجتماعية تهدف إلي صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلي الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها ، ذلك أنه كان لدي الناس في العصور الوسطي رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا والتأمل في الله واليوم الآخر ، ومن أجل مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ" Secularism" تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الانسانية ، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالانجازات الثقافية البشرية ، وبإمكانية تحقيق طموحاتهم في هذه الحياة القريبة . وظل الاتجاه إلي الـ Secularism يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله باعتبارها حركة مضادة للدين ومضادة للمسيحية [١]

وهكذا يتضح أنه لا علاقة للكلمة بالعلم ، إنما علاقتها قائمة بالدين ولكن علي أساس سلبي ، أي علي أساس نفي الدين والقيم الدينية عن الحياة ، وأولي الترجمات بها في العربية أن نسميها " اللادينية" بصرف النظر عن دعوي " العلمانيين" في الغرب بأن " العلمانية " لا تعادي الدين ، إنما تبعده فقط عن مجالات الحياة الواقعية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .. إلخ ولكنها تترك للناس حرية " التدين" بالمعني الفردي الاعتقادي ، علي أن يظل هذا التدين مزاجا شخصي لا دخل له بأمور الحياة العملية

بصرف النظر عن هذا الاعتراض الذي سنناقش مدي حقيقته بالنسبة للحياة الاوربية ذاتها ، كما سنناقشه بالنسبة لنتبين مدي تطابقه أو عدم تطابقه مع المفاهيم الإسلامية ، فإن " اللادينية" هي أقرب ترجمة تؤدي المقصود من الكلمة عند أصحابها ، ولكنا مع ذلك

---

[١] Encyc . Britanica V.Ixp.١٩

سنظل نستخدم المصطلح المعروف عند الناس – مع بيان بعده عن الدقة – حتي يتفق الكتاب علي نبذ هذا المصطلح المضلل ، واستخدام الفظة الأدق

❍ ❍ ❍

نبذ الدين واقصاؤه عن الحياة العملية هو لب العلمانية

وتبدو نشاة العلمانية في أوروبا أمرا منطقيا مع سير الأحداث هناك ، إذا رجعنا إلي الظروف التي شر حناها من قبل في التمهيد الأول من هذا الكتاب ، أي إلي عبث الكنيسة بدين الله المنزل ، وتحريفه وتشويهه ، وتقديمه للناس في صورة منفرة ، دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث وإرجاعه إلي أصوله الصحيحة المنزلة ، كما هو الحال مع القرآن ، المحفوظ – بقدر الله ومشيئته – من كل عبث أو تحريف خلال القرون

فمن المعلوم أن الإنجيل المنزل من عند الله لم يدون علي عهد المسيح عليه السلام إنما تلقاه عنه حواريوه بالسماع، ثم تشتتوا تحت تأثير الاضطهاد الذي وقع علي اصحاب الرسالة الجديدة سواء من اليهود أو من الرومان ، فلما بدأ تدوينه بعد فترة طويلة من نزوله كان قد اختلط في ذاكرة أصحابه ن كما اختلطت النصوص فيه بالشروح ، ثم غلبت الشروح علي النصوص .. ووقع الاختلاف والتحريف والتصحيف الذي يشير إليه كتاب التاريخ الأوربي ومؤرخو الكنيسة علي السواء ، واستبد رجال الدين بشرح ما سمي الاناجيل بالاحتفاظ بعلم" الأسرار " التي نشات من التحريف والتصحيف والتي لا أصل لها في دين الله المنزل ، ثم زاد استبدادهم –كما أسلفنا في ذلك التمهيد – فصار طغيانا شاملا يشمل كل مجالات الفكر والحياة : طغيانا روحيا وفكريا وعلميا وسياسيا وماليا واجتماعيا ..وفي كل اتجاه

فحين يحدث نفور من الدين في مثل هذا الجو فهذا أمر منطقي مع سير الأحداث ، وإن لم يكن منطقيا مع " الإنسان " في وضعه السوي ، فإذا كان الانسان عابدا بفطرته ، وكان الدين جزءا من الفطرة أو هو طبيعة الفطرة فإن الانسان الراشد في مثل الوضع الذي وجدت فيه أوربا كان ينبغي عيه أن ينبذ ذلك الدين الذي تحوطه كل تلك التحريفات في نصوصه

وشرحه وكل تلك الانحرافات فى سلوك رجاله ، ثم يبحث عن الدين الصحيح فيعتنقه ، وقد فعلت أوربا الأمر الأول فنبذت دين الكنسية بالفعل ، ولكنها لم تفعل الأمر الثانى حتى هذه اللحظة إلا أفرادا متناثرين لم يصبحوا بعد " ظاهرة " ملموسة . ومن هنا نقول إن الظروف التى أحاطت بالدين فى أوروبا تفسر ولا تبرر . . تفسر شرود الناس فى أوروبا عن الدين ولكنها لا تبرره .. فإنهن لا شئ على الإطلاق يبرر بعد الإنسان عن خالقه ، ونبذه لعبادته على النحو الذى افترضه على عباده ، سواء بالاعتقاد بوحدانيته سبحانه ، أو بتوجيه الشعائر التعبدية إليه وحده ، أو بتنفيذ شريعته ، فهذا التصرف المنحرف من الإنسان الذى نبذ الدين وابتعد عن الله ، هو الذى قال الله فيه : {بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15)} [سورة القيامة 75/14-15] أى أنه لا يقبل منه عذر فيه !

على أن الذى يعنينا الآن ليس هو محاسبة أوروبا على انحرافاتها فى مجال الدين والعقيدة ، فالخلق صائرون إلى ربهم وهو الذى يحاسبهم :

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)} [سورة الغاشية 88/21-26]

ولكن الذى يعنينا هو شرح هذه الانحرافات وبيان الصورة التى حدثت عليها ، والظروف التى أحاطت بها منذ مبدئها حتى صارت إلى ما صارت إليه .

ونخطئ – من وجهة نظرنا الإسلامية – إن قلنا إن " العلمانية " حدثت فقط بعد النهضة . فالحقيقة – من وجهة النظر الإسلامية – أن الفصل بين الدين والحياة وقع مبكرا جدا فى الحياة الأوروبية ، أو أنه – إن شئت الدقة – قد وقع منذ بدء اعتناق أوروبا للمسيحية ، لأن أوروبا –كما أسلفنا فى التمهيد – قد تلقت المسيحية عقيدة منفصلة عن الشريعة (بصرف النظر عما حدث فى العقيدة ذاتها من تحريف على أيدى الكنيسة) ولم تحكم الشريعة شيئا من حياة الناس فى أوربا إلا ط ألحوال الشخصية " فحسب ، أى أنها لم تحكم الأحوال السياسية ولا الأحوال الاقتصادية ولا الأحوال الاجتماعية فى جملتها . وهذا

الوضع هو علمانية كالة من وجهة النظر الإسلامية[٢] ولكن الذى تقصده أوروبا بالعمانية " Secularism" ليس هذا ، لأنها لم تألف الصورة الحقيقية للدين أبداء فى يوم من الأيام ! إنما الذى تقصده أوروبا حين تطلق هذه الكلمة هو إبعاد ما فهمته هى من معنى الدين عن واقع الحياة ، متمثلا فى " بعض " المفاهيم الدينية ، وفى تدخل " رجال الدين " باسم الدين فى السياسية والاقتصاد والاجتماع والفكر والعلم والأدب والفن .. وكل مجالات الحياة ، ثم إقامة هذا كله بعيدا عن نفوذ الكنيسة من جنة ، وبعيدا عن مفاهيم الدين كلها من جهة أخرى ، بصرف النظر عن وجود الكنيسة أو عدم وجودها .

بعبارة أخرى نقول إن ما نبذته أوروبا حين أقامت علمانيتها لم يكن هو حقيقية الدين — فهذه كانت منبوذة من أول لحظة ! — إنما كان بقايا الدين المتناثرة فى بعض مجالات الحياة الأوروبية أو فى أفكار الناس ووجداناتهم فجاءت العلمانية فأقصت هذه البقايا إقصاء كاملا من الحياة ، ولم تترك منها إلا حرية من أراد أن يعتقد بوجود إله يؤدى له شعائر التعبد فى أن يصنع ذلك على مسئوليته الخاصة ، وفى مقابلها حرية من أراد الإلحاد والدعوة إليه أن يصنع ذلك بسند الدولة وضماناتها !

❍ ❍ ❍

كيف نشأت هذه العلمانية فى أوروبا ؟

أى كيف أقصيت بقايا الدين من الحياة الأوروبية وصارت الحياة " لا دينية " تماما فى كل مجالاتها العملية؟

نحتاج أن نتذكر أولا أنه فى الوقت الذى لم يكن للدين الحقيقى وجود فى أوروبا — سواء فى صورة عقيدة صحيحة أو صورة شريعة حاكمة —كان هناك نفوذ ضخم جدا يمارس باسم الدين فى مجال العقيدة وفى مجالات الحياة العملية كلها من قبل رجال الدين ، ويتمثل فى حس الناس هناك على أنه هو " الدين " !

أى أن الصورة الواقعية للدين فى أوروبا كانت تتمثل أولا فى عقيدة مأخوذة من " الأناجيل " وشروحها تقول إن الله ثالث ثلاث وإن الله هو المسيح ابن مريم ،وتتمثل ثانيا فى

---

[٢] سنتحدث فى هذه النقطة تفصيلا فى نهاية الفصل .

صلوات وقداسات ومواعظ واحتفالات تقام فى الكنائس يوم الأحد بصفة خاصة ، وتتمثل أخيرا – وليس آخرا – فى نفوذ لرجال الدين على الملوك وعلى عامة الناص ، فأما نفوذهم على الملوك فيتضمن أنهم لا يجلسون على عروشهم إلا بإذن البابا ومباركته ، ولا يتولون سلطانهم على شعوبهم إلا بتولية البابا لهم ، وإذا غضب عليهم البابا – غضبا شخصيا لا علاقة له البتة بتحكيم شريعة الله – نبذتهم شعوبهم ولم تذعن لأوامرهم ، وأما نفوذهم على عامة الناس فيتضمن أنهم لا يصبحون مسيحيين إلا بتعميد الكاهن لهم ، وليس لهم صلاة إلا بحضور الكاهن أمامهم فى مكان محدد هو الكنيسة ، ولا يموتون موتا صحيحا إلا بإقامة قداس الجنازة لهم على يد الكاهن ، ولا يعتقدون إلا ما يلقنهم إياه رجال الدين من شئون العقيدة ، ولا يفكرون إلا فيما يسمح لهم رجال الدين بالتفكير فيه ، وعلى النحو الذى يسمحون لهم به ، ولا يتعلمون إلا ما يسمح لهم رجال الدين تعلمه ، ولرجال الدين فوق ذلك نفوذ على أموالهم وعلى أجسادهم وعلى أرواحهم أشرنا إلى جوانب منه من قبل.

هذا الدين – بهذه الصورة – مخالف للدين المنزل من عند الله فى أكثريته .. ولكنه ليس خلوا بالمرة من حقائق الدين ، وهذه شهادة الله فيهم :

{وَمِنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [سورة المائدة 14/5]

ففيه من حقائق الدين ان الله هو الذى خلق الكون كله ، وهو الذى خلق الإنسان على هذه الصورة الإنسانية وجعله عاقلا مفكرا مريدا ، وكلفه الأمانة ، وكلفه عمارة الأرض والهيمنة عليها ، وعرفه أن هناك بعثا ونشورا وحسابا وثوابا وعقابا يوم القيامة ، وأن هناك جنة ونار أبديتين يصير الناس إليهما كل بحسب عمله ، وفيه من حقائق الدين كذلك أن الله حرم القتل والسرة والزنا والربا والكذب والغش والخيانة .. وأوجب على الناس فى حياتهم أخلاقيات معينة يتقيدون بها فى تعاملهم بعضهم مع بعض ، وأن الله شرع الزواج وحرم علاقات الجنس خارجه ، وشرع الأسرة وأوجب صيانتها وجعل للرجل القوامة عليها .. إلى آخر ما يجرى هذا المجرى من حقائق الدين .

ولكن الدين المنزل من عند الله ليس فيه أن الله هو المسيح ابن مريم وأن الله ثالث ثلاثة ، وليس فيه أن يشرع رجال الدين (الأحبار والرهبان) من عند أنفسهم فيحلوا ويحرموا بغير ما أنزل الله (كما أحلوا الخمر والخنزير وأبطلوا الختان) وليس فيه أن يطلب رجال الدين لأنفسهم سلطانا يرهبون به الناس ويفرضون عليهم ما أحلوا هم وما حرموا من دون الله ، كما يفرضون عليهم الخضوع الكامل لأهوائهم فى الوقت الذى لا يستخدمون فيه سلطانهم الرهيب فى فرض شريعة الله على الأباطرة والملوك ليحكموا بها بدلا من القانون الرومانى ، ويكتفون بجعل هذه الشريعة مجرد مواعظ خلقية وروحية من شاء أن يتقيد بها تقيد ومن شاء أن يتفلت منها فلا سلطان لأحد عليه فى الأرض ، بينما القانون الرومانى يعاقب المخالفون له بالقتل أو الحبس أو ما سوى ذلك م العقوبات !

وليس فى الدين المنزل أن الأرض منبسطة وليست كروية ، وأن من قال بكرويتها يحرق حيا فى النار !

وليس فيه أن يفرض رجال الدين لأنفسهم – لا للفقراء والمساكين – عشور أموال الناس ، ولا السخرة المجانية فى أرض الكنيسة .

وليس فيه كل ما فعله رجال الدين من فضائح ومخاز ودناءات .. كصكوك الغفران والفساد الخلقى بكل أنواعه ومناصرة الكنيسة للمظالم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الواقعة على الشعوب !

ولكن أوروبا حين أنشأت علمانيتها نبذت الدين كله ، لم تفرق بين أباطيل الكنيسة وبين حقائق الدين!

وصحيح أن الدين الكنسى – بحقائقه وأباطيله – لم يكن صالحا للحياة ، ولم يكن مقبولا عند الله :

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} [سورة المائدة 68/5]

ولكن أوروبا – كما أشرنا من قبل – حين نبذت دين الكنيسة الفاسد لم تبحث عن الدين الصحيح ، الذى يصدق الحقائق ويبطل الأباطيل .

❍ ❍ ❍*

كان الدين الكنسى ذا سطوة عنيفة على كل مرافق الحياة فى أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة . وكان ذلك أمرا سيئا شديد السوء ، لا بسبب سيطرة " الدين " على الحياة كما خيل لأوروبا بغباء فى جاهليتها المعاصرة ، ولكن بسب سيطرة الفساد الكامن فى ذلك الدين الكنسى على كل مرافق الحياة !

ولكن نستيقن من الحقيقة فى هذا الأمر ما علينا إلا أن نراجع فترة مقابلة " وموازية " من التاريخ ، كان فيها الدين الصحيح ذا سيطرة عظيمة على كل مرافق الحياة .. تلك هى الفترة الأولى من حياة المسلمين التى امتدت حوالى سبعة قرون من الزمان . . فكيف كانت ؟! كان الهدى . وكان النور . وكان العلم ، وكانت الحضارة التى عرفت أوروبا طرفا منها فى الأندلس والشمال الأفريقي . وكان كل جميل من الأفكار والمشاعر وأنماط السلوك برغم كل الانحراف الذى طرأ على حياة المسلمين فى تلك القرون ، سواء من جانب الحكام أو من جانب المحكومين !

فلم يكن " الدين " فى ذاته إذن هو مصدر السوء فى الحياة الأوروبية فى تلك الفترة (ولنذكر أن أسبانيا – وهى جزء من أوروبا – كانت مزدهرة فى نفس الوقت بتأثير الدين الصحيح ، كما كانت صقلية وغيرها من الأصقاع الأوروبية التى دخل فيها الإسلام) إنما كان " فساد الدين " هو السبب فى ذلك الظلام الذى اكتنف أوروبا فى قرونها الوسطى المظلمة الحالكة السواد .

وأوروبا لا تحب أن تصدق هذه الحقيقة فى جاهليتها المعاصرة – مع أنها حقيقة موضوعية بحتة يشهد بصحتها كل ما كتبه مؤرخوهم المنصفون عن الحضارة الإسلامية – لأن مجرد تصديقها معناه أنهم كانوا مخطئين فى نبذه " الدين " كله بحجة فساد الدين الذى قدمته الكنيسة لهم ، وأنهم مازالوا مخطئين إلى هذه اللحظة للسبب ذاته .. وهم لا يريدون أن يرجعوا إلى الدين بأى وسيلة من وسائل الرجوع !

مرة أخرى لا تريد أن نحاسب أوروبا على انحرافاتها فى مجال الدين والعقيدة ، إنما نشرح فقط خطوات ذلك الانحراف .

كانت سيطرة الدين الكنسى على الحياة الأوروبية فى قرونها المظلمة أمرا سيئا كما قلنا — برغم سيطرة بعض الفضائل الدينية على الحياة وخاصة فى الريف الأوربى — لأن ذلك الدين بما حواه من انحرافات جذرية فى العقيدة من ناحية ، وفى فصل العقيدة عن الشريعة من ناحية أخرى ، وفى فساد ممثليه من رجال الدين وجهالتهم من ناحية ثالثة — كان مفسدا للحياة ومعطلا لدفعتها الحية ، كما كان مفسدا للعقول ومعطلا لها عن التفكير السليم .

لذلك كان نبذ ذلك الدين والانسلاخ منه أمرا ضروريا لأوروبا إذا أرادت أن تتقدم وتتحضر وتعيش ..

ولكن البديل الذى اتخذته أوروبا بدلا من دينها لم يكن أقل سوءا إن لم يكن أشد ، وإن كان قد أتاح لها كل العلم والتمكن المادى الذى يطمح إليه البشر على الأرض ، تحقيقا لسنة من سنن الله التى تجهلها أوروبا وتجهل حكمتها ، لأنها لا تؤمن بالله وما نزل من الوحى :

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)} [سورة الأنعام 44/6]

نعم ! لم تكن العبودية للأحبار والرهبان من البابوات ورجال الدين أمرا صالحا للحياة ولو كانوا هم أنفسهم من الصالحين ، لأن العبودية لاتصح إلا لله وحده ، ولا تصلح الحياة إلا إذا كانت لله وحده .. فكيف وهؤلاء الأحبار والرهبان على ما كانوا عليه من الفساد والجهالة والبعد عن حقيقة الدين ؟!

{اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31)} [سورة التوبة 31/9]

ولم يكن الدين الذى يحوى كل ذلك القدر من الأساطير ، ويحارب العلم ويحجر على الفكر ، ويفصل بين الدنيا والآخرة فيهمل الدنيا وينبذها من أجل الخلاص فى الآخرة ، ويحتقر الجسد ويعذبه من أجل خلاص الروح ، ويبيح فى الوقت نفسه للإقطاعيين أن يمتصوا دماء الفلاحين ويكتنزوا بها ويترفوا ويفسدوا ، ويخذل الفلاحين عن الثورة على هذا الظلم

بحجة الحصول على رضوان الله وجنته فى الآخرة إن رضوا بالمذلة والظلم فى الحياة الدنيا .. لم يكن ذلك الدين ليسمح للحياة بالتقدم ، وهو يلفها بأغلفة سميكة من الظلام .

ويقول التاريخ – الذى تكره أوروبا الاعتراف به إلا القلة المنصفة – إن أوروبا بدأت تخرج من ظلمات قرونها الوسطى المظلمة حين احتكت بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، سواء فى الحروب الصليبية أو البعوث التى بعثتها للتعلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس بصفة خاصة ، وفى صقلية وغيرها من البلاد التى نورها الإسلام .

بل تقول الروايات التاريخية إن رجال الدين المسيحى أنفسهم كانوا يتعاطون الثقافة الإسلامية فى تلك المدارس ، أو فيما ينقل منها إلى اللغات الأوروبية ، وإنهم كانوا يترقون فى مناصب الأكليروس بقدر ما يحصلون عليه من تلك الثقافة ! "

ويقول روجر بيكون (فى القرن الثالث عشر الميلادى) : " من أراد أن يتعلم فليتعلم العربية لأنها هى لغة العلم " .

لقد وجدت أوروبا حين احتكت بالمسلمين عالما عجيبا بالنسبة إليها ، ليس فيه بابورات ولا رجال دين ! وليست فيه أسرار عقيدية يختص بعلمها فريق من الناس دون فريق .. وليس فيه " نبلاء ! " يستعبدون الناس فى إقطاعياتهم .. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر ، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس .

يقول " راندال " فى كتابه " تكوين العقل الحديث " (ترجمة جورج طعمة ج 1 ص 314 من الترجمة العربية) :

وبنوا (يقصد المسلمين ، وإن كان يستخدم لفظة " العرب " تحاشيا لذكر المسلمين !) فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب ، بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية ، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة " .

ويقول ليوبولد فايس (محمد أسد) فى كتابه " الإسلام على مفترق الطرق " (ترجمة عمر فروخ ص 39 – 40 من الترجمة العربي) :

" إن العصور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة فى أوروبة .. كانت العلوم فى ركود ، وكانت الخرافة سائدة ، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم ، فى ذلك الحين أخذ النفوذ الإسلامى فى العالم – فى بادئ الأمر بمغادرة الصليبيين إلى الشرق ، وبالجامعات الإسلامية الزاهرة فى أسبانيا المسلمة فى الغرب ، ثم بالصلات التجارية المتزايدة التى أنشأتها جمهوريتنا جنوة والبندقية – أخذ هذا النفوذ يقرع الأبواب الموصدة دون المدنية العربية .

" وأمام تلك الأبصار المشدوهة ، أبصار العلماء والمفكرين الأوروبيين ، ظهرت مدنية جديدة ، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة ، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت ثم أصبحت فى أوروبة من قبل نسيا منسيا . ولكن الذى صنعه العرب كان أكثر من بعث لعلوم اليونان القديمة .. لقد خلقوا لأنفسهم عالما علميا جديدا تمام الجدة .. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها ، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يدشن فى مدن أوروبا النصرانية ، ولكن فى المراكز الإسلامية : فى دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة " .

وتعلمت أوروبا كل العلم الذى وجدته عند المسلمين ، كما أخذت كثيرا من الأصول الحضارية التى وجدتها عندهم " [٣] " ولكنها لأمر رفضت أن تأخذ الإسلام ، رغم السماحة الهائلة التى لمسها المسيحيون من المسلمين فى الأندلس ! وارتدت من جاهلية الدين الكنسى المحرف إلى جاهلية ما قبل ذلك الدين ، الجاهلية الإغريقية الرومانية Greco-Roman لتنشئ على أساسها جاهلية جديدة متقدمة كل التقدم فى العلم والتكنولوجيا (على أساس العلم الذى أخذته من المسلمين ، والمنهج التجريبى فى البحث العلمى الذى استمدته منهم) ومنتكسة أشد الانتكاس فيما عدا ذلك من جوانب الحياة ..

من الإغريق أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد فى صورة جمال حسى .

ومن الرومان أخذت عبادة الجسد فى صورة متاع حسى ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الإنسان فى المتاع وينسى " القيم " التى تكون الإنسان

" [٣] " انظر كتاب " شمس الله تشرق فوق الغرب " وانظر فصلا بعنوان " المسلمون فى أسبانيا " فنونهم وصناعاتهم وما كان لهم من فضل فى ثقافة أوروبا فى العصر الحديث " بقلم ج . ب . ترند G. B. Trend ص 729 – 760 من الترجمة العربية لكتاب " تاريخ العالم " نشر وزارة التربية والتعليم المصرية .

. كما أخذت شهوة التوسع الحربى واستعباد الأمم الضعيفة لحساب الدولة " الأم " فى صورة إمبراطوريات .

والمهم – بالنسبة لبحثنا الحاضر – أنها بدأت تنبذ الدين !

❍ ❍ ❍

قامت النهضة على أسس معادية للدين من أول لحظة .

قامت على أصول " بشرية " بدلا من الأصول الدينية أو الإلهية كما كانت تصورها لهم الكنيسة .

كان الدين الذى قدمته لهم الكنيسة على أنه الدين الإلهى دينا أخرويا لا يقيم وزنا للحياة الدنيا ، بل يحتقرها ويزدريها ويدعو إلى إهمالها وعدم الالتفات إليها فى سبيل الحصول على " الخلاص " ، خلاص الروح ، الذى لا يمكن الوصول إليه إلا بالتجرد من متاع الأرض ، والاستعلاء على مطالب الجسد ، والتطلع إلى ملكوت الرب الذى يتحقق فى الآخرة ولا سبيل إلى تحقيقه فى الحياة الدنيا . ومن ثم فإن " حركة التاريخ " ومحاولة تصحيحها بتصحيح حركة المجتمع كما يقول ولفرد كانتول سميث Wilfred Cantwell Simth فى كتاب " الإسلام فى التاريخ الحديث Islam in Modern History " لم تكن فى حساب الكنيسة المسيحية لا أيام ضعفها فى القرون الأولى ولا حين أصبح لها السلطان "[٤] إنما يسعى كل إنسان إلى خلاصه الشخصى ، كالذى يسير على معبر دقيق كل عمه ألا يفقد توازنه فيقع فى الهاوية ، أو كالذى يسير فى الوحل كل همه أن يشمر ثيابه ويلتفت إلاى مواقع قدميه حتى لا ينزلق أو يتلطخ بالوحل ، لا يهمه أن يصحح مواضع أقدم الآخرين أو يقيهم من الانزلاق .

ومن هنا فإن هذا الدين فى صورته الكنسية تلك لم يكن يسعى إلى تحسين أحوال البشر على الأرض ، أو إزالة المظالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تقع عليهم ، وإنما يدعو إلى الزهد فى الحياة الدنيا برمتها ، وترك كل شئ على ما هو عليه ، لأن فترة الحياة الدنيا أقصر وأضأل وزنا من أن يحاول الإنسان تعديل أوضاعه فيها . إنما يسعى جاهدا إلى

" ٤ " ص 30 – الطبعة الأولى ، سنة 1957 .

الخلاص منها دون أن يعلق بروحه شئ من الآثام . والمتاع ذاته هو من الآثام التى يحاول المتطهرون النجاة منها بالرهبنة واعتزال الحياة .

بل أكثر من ذلك : إن احتمال المشقة فى الحياة الدنيا ، واحتمال ما يقع فيها من المظالم هو لون من التقرب إلى الله يساعد على الخلاص . ومن ثم دعت الكنيسة الفلاحين للرضا بالمظالم التى كانت تقع فى ظل الإقطاع وعدم الثورة عليها لينالوا رضوان الله فى الآخرة ، وقالت لهم : " من خدم سيدين فى الحياة الدنيا خير ممن خدم سيدا واحدا " !

ومن جهة أخرى كان هذا الدين يحصر كيان الإنسان فى نطاق محدود محصور أشد الحصر ، ليبرز جانب الألوهية فى أكمل صورة .

ألوهية الله فى ذلك الدين معناها السلبية الكاملة للإنسان ، وحصر دوره – لا فى العبادة بمعناها الواسع ، أى على النحو الذى قرره الإسلام ، والذى يشمل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى – إنما فى الخضوع لقدر الله القائم ، وعدم العمل على تغيير شئ من الواقع المحيط بالإنسان ، لأن محاولة التغيير – ولو إلى الأحسن – تحمل فى طياتها " عدم الرضا " بالأمر الواقع ، وهو لون من التمرد على إرادة الله لا يقره ذلك الدين .

ومن ثم فإن فاعلية الإنسان محصورة فى الطاعة للأوامر الإلهية – كما تعرضها الكنيسة بالحق أو الباطل – لا تتعداها إلى الإنشاء لأنه ، ليس للإنسان أن ينشئ شيئا من عند نفسه ، ولو كان يلتزم فى هذا الإنشاء بالهدى الربانى . ومن ثم كذلك كان ثبات الأوضاع فى أوروبا فى العصور الوسطى لفترة طويلة من الزمان بكل ما تحمل من ألوان الفساد السياسى والاقتصادى والاجتماعى والفكرى والروحى .. على أساس أنها قدر الله الذى لا يجوز للناس تغييره ، إنما ينبغى الخضوع له والمحافظة عليه تقربا إلى الله !

❍ ❍ ❍

هذا الدين بصورته تلك لم يكن هو الدين المنزل من عند الله ، ولم يكن – كما أسلفنا – صالحا للحياة . كان لابد من نبذه والانسلاخ منه لكى تسير دفعة الحياة فى خطها الصحيح .

ولقد كان عرى مقربة من أوروبا – بل فى جزء من أرضها – دين آخر يقدم المنهج الصحيح للحياة ، فلا هو دين أخروى بحت بمعنى إهمال الحياة الدنيا ، ولا هو الدين الذى يفرض السلبية الكاملة على الإنسان ، ويفرض عليه الخضوع " للأمر الواقع " وعدم التفكير فى تغييره .

إنه دين يعمل للآخرة من خلال العمل فى الدنيا " الدنيا مزرعة الآخرة " .

ويبين أن العمل للآخرة لا يعنى إهمال الحياة الدنيا {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا} [سورة القصص 77/28] {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [سورة الأعراف 32/7]

وهو دين يعمل لإصلاح الحياة الدنيا بإقامة المنهج الربانى الذى يأمر بالعدل والقسط ، كما يدعو إلى الجهاد لإقامة هذا المنهج ومنع الانحراف عنه ، ذلك الانحراف الذى يؤدى إلى فساد الحياة وإلى وقوع الظلم على الناس :

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)} [سورة الحديد 25/57]

وهو دين يجعل للإنسان إيجابية واسعة فى الأرض .

فقد خلقه الله ابتداء ليكون خليفة فى الأرض :

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [سورة البقرة 30/2]

ومن شأن الخلافة الهيمنة على الأرض والسيطرة عليها ، والإنشاء والتعميري فيها ، واستغلال الطاقات المذخورة فى السماوات والأرض ، التى سخرها الله للإنسان من أجل عمارة الأرض ، والمشى فى مناكب الأرض لاستخلاص الأرزاق المكنونة فيها والظاهرة :

{هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [سورة هود 61/11]

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} [سورة الجاثية 13/45]

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [سورة الملك 15/67]

بل إن المنهج الربانى ذاته يستدعى إيجابية الإنسان لتنفيذه ، فهو لا ينطبق انطباقا آليا على الأحداث والأشياء ، بل الإنسان المستبصر بالهدى الربانى هو الذى يطبقه ويجتهد بفكره ليضع تفصيلات تنفيذه ، خاصة وهو منهج حياة كامل ، يشمل الثابت والمتغير فى حياة الإنسان ، فلابد أن يجتهد على الدوام ليضع للمتغير حلا مستمدا من المبادئ الثابتة فى هذا المنهج .. ومن ثم يعمل الإنسان بإيجابيته الكاملة فى التنفيذ ، سواء إيجابية العزيمة اللازمة لإقامة المنهج والجهاد لإقراره فى الأرض ، أو إيجابية التفكير فى الوسيلة المثلى لإقامته ..

بل إن قدر الله ذاته يجرى من خلال أعمال الإنسان بالخير والشر سواء :

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41)} [سورة الروم 41/30]

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112)} [سورة النحل 112/16]

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (96)} [سورة الأعراف 96/7]

{إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ} [سورة الرعد 11/13]

وهذا الدين الذى يعطى التوازن الصحيح بين الدنيا والآخرة ، وبين فاعلية قدر الله وفاعلية الإنسان ، وبين العبودية الكاملة لله والإيجابية السوية للإنسان ، هو الدين الصحيح الذى تصلح به الحياة فى الأرض ، وتستقيم به خطى البشر فى الحياة الدنيا " "٥" .

" ٥ " انظر فصل التوازن فى كتاب خصائص التصور الإسلامى .

ولكن أوروبا – بدافع العصبية الصليبية – أعرضت عن هذا الدين واتجهت إلى الجاهلية الإغريقية الرومانية ، تنتقم بها من الكنيسة ودينها الفاسد الذى يهمل الحياة الدنيا ويلغى الوجود الإيجابى للإنسان .

وغذ كانت النهضة فى مجموعها " رد فعل " للكبت الواقع على " الإنسان " بفعل التصور الكنسى للدين ، والممارسة الكنسية له ، وإذ كان الغالب على ردود الفعل هو الاندفاع لا التعقل ولا التبصر ولا الروية ولا الاتزان .. فقد اندفعت أوروبا فى نهضتها تنزع من طريقها كل معلم من المعالم الإلهية (سواء كانت إلهية حقا أو مدعاة من قبل الكنيسة) وتضع مكانها معالم بشرية من صنع الإنسان ، كما تنزع من طريقها كل ما يتصل بالآخرة لتضع بدلا منه ما يتصل بالحياة الدنيا .. وكانت هذه هى بداية " العلمانية " بالتعريف الأوروبى ..

❍ ❍ ❍

لقد اصبح الطابع المميز للفكر الأوروبى منذ النهضة هو التمرد على الدين والتمرد على الله ، وكان ذلك نابعا من تأثيرين فى آن واحد . التأثير الأول هو روح رد الفعل الذى قام ضد الدين والكنيسة ، والثانى هو تأثير الجاهلية الإغريقية فى هذا الشأن بالذات .

فأما رد الفعل فقد أخذ صورة الخروج على كل ما كان سائدا من قبل فى فترة السيطرة الكنسية .

كان السائد هو ألا يفكر الإنسان لنفسه فى شئ من الأشياء إنما يأخذ الأفكار جاهزة من الكتب المقدسة وشروحها عن طريق رجال الدين ، سواء كانت الأفكار متصلة بالعقيدة أو بأمر من أمور الدنيا ، أو حتى أمور العلم كقضية شكل الأرض .

وغنى عن البيان أن هذا ليس الموقف الصحيح للإنسان فى ظل الدين الصحيح " [٦]" ولكن هكذا كانت الممارسة الدينية فى ظل الجاهلية الكنسية المنحرفة ، والتى من جرائها كان لرجال الدين كل ذلك النفوذ على عقول الناس وأرواحهم ، فهم الوسطاء بين الناس وبين الدين ومفاهيمه ، بل هم الوسطاء بين الناس وبين الله ، والناس – علماء أو غير علماء –

" [٦] " سنعاود الحديث فى هذه النقطة فى هذا الفصل وفى فصل " العقلانية " كذلك .

لا يبحثون فى أى شأن من الشؤون ليكونوا فيه رأيا أو موقفا . إنما يسألون رجال الدين ليدلوهم على الرأى أو الموقف الذى ينبغى عليهم اتخاذه . هذا بالإضافة إلى أن الأمور التى يسألون عنها هى أولا وقبل كل شئ أمور " الخلاص " . الخلاص من أدران الحياة الدنيا للحصول على رضوان الله فى الآخرة .

وكان رد الفعل إن الإنسان هو الذى ينبغى أن يستشار فى الأمور كلها وليس الدين ، وأن العقل البشرى هو الذى ينبغى أن يكون صاحب القرار وليس الله .. ولو كان الأمر متعلقا بالعقيدة أو الأمور الأخروية . وبمقدار ما كان العقل مكبوتا ومحجورا عليه ، انطلق هذا العقل يريد أن يقتحم كل ميدان ولو كان خارجا عن اختصاصه ! يقتحمه بروح أنه هو صاحب الحق الذى كان ممنوعا من حقه فهو يريد أن يؤكد هذا الحق . ويقتحمه بروح الشك ، أو روح المحو لكل ما كان موجودا من قبل ولم يشترك فيه ، فهو يريد أن ينشئه من جديد سواء وافق ما كان موجودا من قبل أو خالفه ، والأجدر به أن يخالفه لكى يثبت وجوده .

بهذه الروح بدأ الكتاب و" المفكرون الأحرار " يهاجمون فكرة الألوهية وينفون الرسالات والوحى ، وينفون الحياة الآخرة والجنة والنار .. ويقولون إن هذه كلها أوهام تبنتها البشرية فى غيبة من العقل ، والآن وقد صحا العقل فقد آن الأوان لنبذها وتركها للهمج المتأخرين .. وربما كان خير ممثل لهذا الاتجاه هو " فولتير " الكاتب الفرنسى الملحد المشهور .

أما التأثير الثانى الذى أشرنا إليه فهو تأثير الجاهلية الإغريقية التى تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة صراع وخصام لا يفتر : الآلهة تريد أن تقهر الإنسان وتكبته وتحطمه لكى لا يطمح فى أن يكون مقتدرا مثلها ، فلا تفتأ كلما حقق نجاحا أن تصب الكوارث فوق رأسه لكى لا يستمتع بثمرات نجاحه ، وهو من جانبه دائم التحدى للآلهة ، كلما وقع فى حفرة من حفائرها عاد يستجمع قواه ليصارعها من جديد . وتكفى أسطورة بروميثيوس الشهيرة لبيان هذا المعنى بصورة مباشرة ، إذ تزعم تلك الأسطورة أن " زيزس " إله الآلهة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ثم سواه على النار المقدسة (التى ترمز إلى المعرفة) ثم وضعه فى الأرض محاطا بالظلام (الذى يرمز إلى الجهل) فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى بروميثيوس ، فسرق له النار المقدسة لكى ينير له ما حوله ، فغضب زيوس على الإنسان

وعلى بروميثيوس كليهما . فأما بروميثيوس فقد وكل به نسرا يأكل كبده بالنهار ثم تنبت له كبد جديدة بالليل يأكلها النسر بالنهار فى عذاب أبدى !

وأما الإنسان فقد أرسل له زيزس " باندورا " (التى ترمز إلى حواء) لكى تؤنس وحشته (فى ظاهر الأمر !) وأرسل معها هدية عبارة عن علبة مقفلة ، فلما فتحها إذا هة مملوءة بالشرور التى قفزت من العلبة وتناثرت على سطح الأرض لتكون عدوا دائما وحزنا للإنسان !

ويشير جوليان هكسلى إشارة صريحة إلى هذه الأسطورة فى كتابه " الإنسان فى العالم الحديث Man in the Modern World " فيقول إن موقف الإنسان الحديث هو ذات الموقف الذى تمثله هذه الأسطورة ، فقد كان الإنسان يخضع لله بسب الجهل والعجز ، والآن بعد أن تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر الجهل والعجز على عاتق الله ، ويصبح هوة الله !!

من هذين التأثيرين معا انطلق الفكر " المتحرر " يهاجم الدين ، ويصفه بأنه الأغلال التى تغل الفكر عن الانطلاق ، والتى ينبغى أن تحطم لكى يثبت الإنسان وجوده ، ويقوم بدوره الذى يجب أن يقوم به فى الأرض !

❍ ❍ ❍

وفى نفس الوقت اتجه الفكر المنسلخ من الدين إلى البحث عن مصدر آخر للقيم الإنسانية غير الدين ! ذلك أن أوروبا لم تكن قد انسلخت بعد من القيم ذاتها كما حدث فيما بعد ، حين امتد الخط المنحرف فازداد بعدا وانحرافا ، أو لم تكن قد سنحت الفرصة للشريرين أن يعلنوا الحرب المنظمة على كل مقومات " الإنسان " كما سنحت لهم بعد ظهور الداروينية وإعلان حيوانية الإنسان !

ففى تلك الفترة وجد " الفكر الحر ! " أنه إن أقر بأن الدين هو مصدر القيم الإنسانية فقد وجب عليه أن يحافظ عليه ولا يهاجمه ولا يسعى إلى تحطيمه ! فينبغى إذن أن يبحث ذلك الفكر عن مصدر آخر يستمد منه القيم ويسندها إليه ، لكى لا يقول أحد إنه لا يمكن الاستغناء عن الدين ! وعلى هذا الضوء يمكننا فهم فلسفة " أوجست كومت " من

ناحية ، وأفكار جان جاك روسو من ناحية أخرى . فكلاهما يجهد نفسه ليقول للذين يقفون مدافعين عن الدين : ها قد وجدنا مصدرا آخر تنبع منه القيم الضرورية لحياة الإنسان غير الدين ، وجدناه فى " الطبيعة " وفى " النفس البشرية " وهو مصدر أفضل – فى إنبات القيم وترسيخها – من الدين .. فدعونا إذن من الدين ، وتعالوا معنا إلى تلك المصادر " الحرة " التى يقبل عليها الإنسان إقبالا " طبيعيا " و" ذاتيا " دون أن يحس بالقهر المفروض عليه من قوة أعلى منه !

وفى الوقت ذاته اتجه هذا " الفكر المتحرر " إلى عبادة الطبيعة بدلا من عبادة الله ، ونسبة الخلق إليها بدلا من الله . وقد تحدثنا منق بل عن هذا الأمر بما فيه الكفاية فلا نعود إلى الحديث فيه ، ولكن نضعه فقط فى مكانه من التسلسل التاريخى .

وفى ذات الوقت كله اتجه الفن إلى مناجاة الطبيعة بدلا من مناجاة الله ، وتأليهها بدلا من تأليه الله " [٧] " .

❍ ❍ ❍

ومضى الزمن فى خطواته ، وجاءت الثورة الصناعية .. وجاء مزيد من إبعاد الدين عن الحياة .

ففى العهد الزراعى – أو الإقطاعى كما يسمونه – كان ما يزال للدين نفوذ كبير فى حياة الناس .

كان الملوك قد استقلوا عن سلطان البابا ، وقامت " علمانية الحكم " بفصل الدين عن السياسة (أى إقصاء رجال الدين عن التدخل فى شؤون السياسة) ولكن الكنيسة كان ما يزال لها سلطان ضخم على أخلاق الماس وعاداتهم وأفكارهم رغم كل الصراعات وكل الاعتبارات .

ولكن الثورة الصناعية أحدثت – أو أريد لها أن تحدث – هزات عنيفة فى حياة الناس .

" [٧] " ليست مناجاة الطبيعة فى ذاتها انحرافا عن السلوك القويم فى عالم الفن ، بل العكس هو الصحيح . فالفن السليم لابد أن يلتفت إلى الطبيعة ويتفاعل معها . ولقد لفت القرآن الكريم حس المسلمين لفتا شديدا إلى الطبيعة فى شتى مظاهرها من الجبال والأنهار والوديان والزروع والرعد والبرق والسحاب والمطر والريح والسماء والأرض .. ولكن المناجاة شئ والتأليه الذى مارسته الفنون الأوروبية العلمانية شئ آخر .

ولقد مر بنا فى الفصول السابقة تفصيل ما صنعت الثورة الصناعية فى حياة أوروبا ، وما بنا من حاجة إلى إعادته . ولكنا نذكر مجرد تذكير بإخراج المرأة إلى العمل وإفساد أخلاقها وإفساد أخلاق الرجل معها ، واستغلال قضية المساواة مع الرجل فى الأجر لبث روح الصراع فى نفس المرأة وإحراج صدرها من قوامة الرجل والعمل فى البيت والتفرغ للأمومة ، وما نتج عن ذلك كله من تحطيم الأسرة وتشريد الأطفال والفوضى الجنسية .. الخ ونسبة ذلك إلى التطور الذى يهدم ما يشاء من القيم ويلغى ما يشاء !

وكانت الطامة العظمى هى الداروينية وإبعاد الإنسان ذاته من عالم الإنسان وإلحاقه بعالم الحيوان ! فعندئذ لم تعد هناك حاجة إلى القيم أصلا .. لا الدين ولا الأخلاق ولا التقاليد المستمدة من الدين .. فما حاجة الإنسان إلى شئ من ذلك وهو عريق فى الحيوانية مستقر فى عالم الحيوان ؟!

ثم أتى على الإنسان حين من الدهر لم يعد حتى حيوانا ! بل هبط عن ذلك دركات فأصبح جزءا من عالم المادة الصماء !

❍ ❍ ❍

لم نكن هنا نستعرض خطوات العلمانية بالتفصيل ، فسيأتى شئ من ذلك فيما بعد حين نتحدث عن علمانية السياسة وعلمانية الاقتصاد والاجتماع والعلم والأخلاق والفن .. ولكنا أردنا فقط أن نلفت النظر إلى حقيقة واقعة هى استمرار " الإنسان " فى الهبوط كلما أمعن فى السير على الخط العلمانى .

وأيا تكن السباب التى أدت بأوروبا إلى العلمانية فهى كما قلنا من قبل تفسر العلمانية ولا تبررها ، ولا تبرر بالطبع نتائجها التى أدت إليها ، والتى بدأ المفكرون الغربيون أنفسهم يتنبهون إليها وينذرون نتائجها ، ولكن دون أن يعرجوا على السبب الحقيقى ولا العلاج الحقيقى !

ولئن كانت الكنيسة هى المعتدية على الملوك والعلماء فى بادئ الأمر ، مما أسفر عن العداء بين الدين والسياسة وبين الدين والعلم ، فلم تكن هى المعتدية ولا المتسببة حين أقامت الثورة الصناعية اقتصادياتها على الربا ولجت فيه ، وحين سقطت " الأخلاق " واحدا

إثر الآخر ن حتى الأخلاق التى أقرها " المفكرون الأحرار " فى مبدأ عهدهم يناصبون الكنيسة العداء ، ويبحثون عن مصدر آخر للقيم غير الدين !

إنما استمرأ القوم الفوضى الخلقية وأمعنوا فيها لا للدوافع القديمة التى دفعتهم للخروج على الدين أول مرة ، وكلن لأن هذه هى طبيعة السير على المنزلق .. كل خطوة تصبح أشد هبوطا من السابقة .. وهذه طبيعة الحياة حين يكف الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. يزداد المنكر وينتفش ويستفحل حتى يصبح هو الأصل ، أو حتى يصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن أجل ذلك لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم :

{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79)} [سورة المائدة 5/78-79]

ويجدر بنا الآن على أى حال أن نستعرض الصورة الراهنة للعلمانية فى أوروبا فى مجالات الحياة المختلفة ، لا على أنها الصورة الأخيرة التى ستقف عندها ! فهى لا تقف عند هذا الحد من السوء ، وإن لم يكن فى وسع الخيال أن يتصور ما هو أسوأ ، ولكن لنقيس المسافة بين الأصل الذى كان ينبغى وبين ما وصلت إليه الأمور حين قال الإنسان لنفسه : لقد شب الإنسان عن الطوق ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله !

(1) فى السياسة :

لم تكن السياسة من أول عهدها فى الإمبراطورية الرومانية محكومة بالشريعة المنزلة من عند الله ، وإن وقعت لفترة من الوقت تحت سلطان البابوات ورجال الدين ، يفرضون على الملوك أن ينزلوا على إرادēم على اعتبار أن إرادēم من إرادة الله .

فقد بينا من قبل أن الفصل بين الدين والسياسة كان قائما من أول اعتناق الدولة الرومانية للمسيحية ، إذ اعتنقتها عقيدة فقط ، ولم تأخذ من الشريعة إلا ما يتعلق بالأحوال الشخصية ، وبقيت الأمور الجنائية والأمور المدنية وعلاقة الحاكم بالمحكوم وغيرها من شؤون

الحياة الواقعة يحكمها القانون الرومانى ولا تحكمها الشريعة المنزلة فى التوراة والمعدلة تعديلا جزئيا بالإنجيل :

{وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [سورة آل 50/3]

{وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ (47)} [سورة المائدة 47/5]

ولكن الكنيسة مع رضاها بهذا الأمر – المخالف لأمر الله – فى أيام ضعفها ، لم تحاول فى أيام سلطانها وسطوتها أن تعود إلى الوضع الدينى الصحيح ، فتلزم الملوك والأباطرة أن يحكموا بما أنزل الله ، وهى تمارس عليهم من السلطان ملا يستطيعون معه مخالفتها أو الخروج على أمرها ، بل استغلت سلطانها فى إخضاعهم لأهوائها الخاصة ، بينما تركتهم يحكمون بغير ما أنزل الله وهى راضية عنهم كل الرضا ماداموا يخضعون لأوامرها ، وهذا هو الذى تسميه أوروبا الحكم الدينى أو الثيوقراطى وما أبعده عن الدين !

صحيح أن إخضاع الكنيسة الملوك والأباطرة لأهوائها الذاتية كان يتم باسم الدين وتحت شعاراته ، ولكن هذا لا يكفى لاعتباره حكما دينيا ما دام لا يحكم بما أنزل الله . ولكن الحس الأوروبى المضطرب يخلط بين الدين ورجال الدين نتيجة اتخاذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله ، واعتبار أعمالهم وأقوالهم أعمالا دينية وأقوالا دينية ولو كانت بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين !

مهما يكن من امر فقد استطاعت الكنيسة بنفوذها أن تجعل الملوك والأباطرة طوع إرادتها . وأعلن البابا " نقولا الأول " (858 – 867م) بيانا قال فيه :

" إن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها . وإن أساقفة روما ورثوا سلطات بطرس فى تسلسل مستمر متصل .. (ولذلك) فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن تكون له السيادة العليا والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين ، حكاما كانوا أو محكومين " .

وأعلن البابا جريجورى السابع (تولى البابوية 1073 – 1085) " أن الكنيسة بوصفها نظاما إلهيا خليقة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية ، ومن حق البابا وواجبه – بصفته خليقة الله فى أرضه – أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن يؤيد أو يرفض اختيار البشر للحكام أو تنصيبهم حسب مقتضيات الأحوال "

ولم يكن ذلك كلاما فى الهواء ، إنما كان واقعا عاشته أوروبا عدة قرون ..

وابرز الأمثلة التى يرويها التاريخ الأوروبى ما حدث بين " جريجورى السابع " هذا والإمبراطور الألمانى " هنرى الرابع " مما أشرنا إليه من قبل ، " إذ أن خلافا نشب بينهما حول مسألة " التعيينات " أو ما يسمى " التقليد العلمانى " فحاول الإمبراطور أن يخلع البابا ، ورد البابا بخلع الإمبراطور وإصدار قرار حرمان ضده ، كما أحل اتباعه وأمراء مملكته من ولائهم له وألبهم عليه . فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الإمبراطور على المغفرة لدى وصول البابا إلى ألمانيا فإنه سيفقد عرشه إلى الأبد ، فوجد الإمبراطور نفسه مضطرا إلى استرضاء البابا ، ولم يستطع أن ينتظر حتى يصل البابا إلى ألمانيا ، فسافر إليه فى " كانوسا " وظل واقفا فى الثلج فى فناء القلعة ثلاثة أيام فى لباس الرهبان متدثرا بالخيش حافى القدمين عارى الراس حتى تعطف عليه البابا ومنحه مغفرته !

وفى بريطانيا حصل نزاع بينالملك " هنرى الثانى " وبين " توماس بكت " رئيس أساقفة كنتربرى بسبب دستور رسمه الملك يقضى على كثير من الحصانات التى يتمتع بها رجال الدين ، ثم إن رئيس الأساقفة اغتيل فثارت المسيحية على هنرى الثانى ثورة عنيفة ، فاعتزل الملك فى حجرته ثلاثة أيام لا يذوق فيها الطعام ، ثم أصدر أمره بالقبض على القتلة وأعلن للبابا براءته من الجريمة وألغى الدستور ، ورد إلى الكنيسة كل حقوقها وأملاكها ومع ذلك لم يحصل على المغفرة حتى جاء إلى كنتربرى حاجا مظهرا ندمه ، وسار الأميال الثلاثة الأخيرة من الطريق على الحجر الصوان حافة القدمين حتى دميت قدماه ، ثم استلقى على الأرض أمام قبر رئيس الأساقفة المقتول وطلب من الرهبان أن يضربوه بالسياط ، وتقبل ضرباتهم وتحمل كل الإهانات فى سبيل استرضاء البابا واتباعه " [٨]"

" [٨] " عن كتاب " قصة الحضارة " لول ديورانت ترجمة محمد بدران ، ج 15 – ص 194 ، 197 .

ولكن الملوك والأباطرة أخذوا آخر الأمر يتمردون على ذلك السلطان القاهر الذى تستذلهم به الكنيسة ، ويطالبون " بالسلطة الزمنية " خالصة لهم على أن تقتصر الكنيسة على السلطة الروحية فحسب ، وكان مستندهم فى ذلك نظرية الحق الآلهى المقدس .

يقول رندال (ج 1 – ص 277 من الترجمة العربية لكتاب " تكوين العقل الحديث ") :

" نشأت نظرية الحق الالهى للملوك فى أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية ، أو العلمانية من رقابة البابا والكهنة . كما أنها كانت ردا على دعواه أن له حقها إلهيا فى السيطرة على الأمور الزمنية " .

ونظرية الحق الالهى تستند بدورها إلى نظرية رومانية قديمة تعرف بنظرية العقد الاجتماعى .

يقول راندال (ج 1 – ص 281 من الترجمة العربية من المصدر السابق) :

" تعود أصول فكرة العقد الاجتماعى إلى الفكر الرومانى وفكر القرون الوسطى معا . وقد كانت الإمبراطورية الرومانية – كما ضمنت فى مجلة الحقوق المدنية – على القول بأن كل السلطة وكل حق فى وضع القوانين يعودان للشعب الرومانى ، غير أن الشعب تنازل بموجب قانون شهير عن هذه الحقوق للإمبراطور ، وهو تفسير طبيعى لمجرى التاريخ الرومانى ، فجميع حقوق الشعب الرومانى وجميع سلطاته انتقت إلى الإمبراطور ، وله وحده حق " إصدار " القوانين وحق تفسيرها . وعندما تم إحياء القانون الرومانى فى القرون الوسطى ، انتبه الإمبراطور إلى هذه النظرية واتخذها سلاحا ضد سيطرة الكنيسة ، ثم تبعه فى ذلك جميع الأمراء . وهكذا نشأت نظرية العقد الاجتماعى القائلة بأن كل سلطة مدنية ترتكز فى أساسها على الشعب ، وأن الشعب قد حولها إلى الحاكم ليمكنه من القيام ببعض الوظائف الضرورية . ومن الواضح أنها نظرية ذات حدين .. فقد تفسر لتأكيد سلطة الحاكم الشاملة باعتباره مصدر جميع السلطات ، أو لتأكيد سيادة الشعب الأساسية باعتباره المصدر الأخير لتلك السلطة .. "

وكان " مكيافيللى " و" هوبز " من أشهر المدافعين عن الحق الالهى المقدس ، وعن استبدادية الحكام .

ويهمنا مكيافيللهنا أكثر ، لأنه علم على اتجاه معين فى السياسة الأوروبية نلحظ آثاره بشدة فى أوروبا العلمانية المعاصرة .

هناك حقيقة أكدناها مرارا أن الحكم بما أنزل الله لم تعرفه أوروبا المسيحية فى أى يوم من الأيام ، وأن علمانية الحكم – بهذا المعنى – قائمة فى أوروبا منذ اعتنقت المسيحية . ولكن هذا لم ينف – كما بينا مرارا كذلك – أنه كان للكنيسة ورجالها نفوذ شخصى على الملوك والأمراء طيلة اجتماع السلطة الزمنية والسلطة الروحية فى يد الكنيسة . وفى تلك الفترة لم يكن الحكم دينيا بالمعنى الصحيح – وإن سمته أوروبا كذلك – لأنه لم يكن يحكم بما أنزل الله لا من قبل الملوك والأمراء ولا من قبل الكنيسة المسيطرة عليهم . ومع ذلك فقد كان هذا النفوذ الدينى الذى تمارسه الكنيسة على الحكام يلزم هؤلاء الحكام بشئ من " أخلاقيات " المسيحية رضوا أم كرهوا ، عن إيمان حقيقى أم عن ملق للروح المسيحية ونفاق ..

وليس معنى ذلك أن الحكام التزموا دائما بتلك الأخلاقيات المسيحية ، فكثيرا ما كانوا يخالفونها ، ولكنهم كانوا يحسون بالحرج من مخالفتها ، ويعتذرون دائما عن المخالفة بشتى المعاذير .

فالذى صنعه ميكافيلى هو تعرية " السياسة " من ذلك القناع الأخلاقى المستمد من الدين ، وكشفها عارية من كل أثر لدين أو الأخلاق !

جاء يشرع الجريمة السياسية ويجعلها أصلا ينبغى للحكام أن يتبعوه !س

ولقد كان الحكام – إلا من رحم ربك – يسرون فى سياستهم على أساس أن الغاية تبرر الوسيلة ، والغاية طبعا هى غايتهم هم ! ولكنهم كانوا – حين يستخدمون الوسائل غير النظيفة لتحقيق غاياتهم غير النظيفة – يستترون وراء عبارات براقة تحوى كل نبيل منا لقيم والمبادئ والأخلاقيات ، أما مكيافيللفإن الجديد الذى أتى به – وهو خطير فى ذاته – أنه أعطى الوسائل الخسيسة فى السياسة شرعية صريحة لا مواربة فيها ولا إنكار .

ولقائل أن يقول : وماذا أضاف مكيافيللى من عنده إلى الواقع ؟ ألم يكن الواقع خسيسا فى غاياته ووسائله ؟ فكل ما فعل مكيافيللى أنه كان صريحا بالدرجة التى كشف بها القناع عن الواقع المزيف وجعله حقيقة واقعة !

نعم : ولكن الفارق – العملى – كبير !س

وقد لا يتضح الفرق فى البداية لأن البداية تكون مجرد مطابقة النظرية للواقع الموجود بالفعل . ولكن الفارق يتبين – ويزداد – مع التطبيق .

حين ترتكب المنكر وأنت شاعر بأنه منكر ، فستقتصد فى ارتكابه فلا تلجأ إليه إلا تحت ضغط قاهر ، وستقف فى ارتكابه عند الحد الذى ترى أنه لا يطيح بسمعتك كلها أمام الناس ، وقد تحاول الرجوع عنه فى يوم من الأيام . أما حين يكتسب المنكر فى حسك الشرعية فلماذا تقتصد فى ارتكابه ، ولماذا تقف عند حد من الحدود ؟!

إنها هى ذاتها حكمة وقوع اللعنة على الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه .. لأنهم لا يقفون فى ارتكاب المنكر عند حد معلوم .

وحقيقة إن كتاب " الأمير " الذى ألفه مكيافيللى وأعطى فيه الشرعية للوسائل الخسيسة التى يستخدمها الحاكم من كذب وغش وخديعة وقتل وسفك دماء .ز قد قوبل باستنكار عنيف وقت ظهوره ، لأن أوروبا – كما أسلفنا – كانت نافرة من الدين منسلخة منه ، ولكنها ما تزال تعترف " بالقيم " ، وتحاول الحفاظ عليها ، ولكن بشرط العثور على منبع آخر لها غير الدين .. ومن ثم ظهرت عدة نظريات تحاول أن تجعل للحكم " أخلاقا " ولكنها غير مستمدة من الدين ، كما فعل جان جاك روسو فى حديثه عن نظرية العقد الاجتماعى وأوجست كومت فى فلسفته الوضعية ..

ولكن المنزلق " العلمانى " كان لابد أن يأخذ طريقه .. فمنذ استقلت السياسة عن الدين واستقلت عن الأخلاق المستمدة من معين الدين ، لم يكن من الممكن أن تظل لها أخلاق !

والقرن – الجاهلى – العشرون خير نموذج لما نقول ، فقد قامت فى هذا القرن أبشع دكتاتوريات التاريخ !

ونظرة إلى وقع ايام موسوليني وهتلر ، وما وقع في الدول الشيوعية منذ الثورة الشيوعية حتى اليوم ، كفيلة بأن ترينا إلى أي مدى انحدرت السياسة " العلمانية " في تبرير الوسيلة بالغاية ، وكلتا الوسيلة والغاية ما أنزل الله بها من سلطان !

في فاشية موسوليني ونازية هتلر كانت الغاية هي التجمع القومي والعزة القومية وإحلال قومية كل منهما مكانها " تحت الشمس " !

وفي سبيل هذه الغاية (التي قد تكون مشروعة في ذاتها إذا خلت من العدوان على الآخرين) استباح كل من الرجلين أن يقتل ألوفا ومئات الألوف من المعارضين باسم " حركات التطهير " و" وحدة الصف " و" القضاء على الثورة المضادة " و" القضاء على الطابور الخامس " وما أشبه ذلك من التعلات . وفتحت معسكرات التعذيب ، وذاق الشعب كله ويلات الجاسوية والإرهاب .

وفي التورة الشيوعية كانت الغاية إزالة الظلم (!!) الذي يقع على الناس من جراء الملكية الفردية والصراع الطبقي واستئثار الطبقة المالكة بالحكم والسلطان والمنافع على سحاب الطبقة الكادحة ! وقد مر بنا في فصل الشيوعية وصف العدل (!) الذي طبقته الشيوعية ، والوسائل النبيلة (!) التي طبقت بها ذلك العدل ، ومن بينها ذبح ثلاثة ملايين ونصف مليون من المسلمين في عهد رجل واحد .. وإخضاع الشعب كله لألوان من الإرهاب نادرة في التاريخ !

أما الديمقراطية الليبرالية الرأسمالية فهي التي تبيح احتراف المعارضة واحتراف التأييد بحسب موضع كل حزب منا لحكم : هل هو بداخله أم خارجه ، بصرف النظر عن الحق والعدل والمصلحة الوطنية أو القومية .. وتبيح الكذب من الساسة على شعوبهم في الدعاية الانتخابية (وغير الانتخابية) وتبيح استخدام وسائل استراق السمع بحجة المحافظة على الأمن ، وهي تقوم أساسا على مساندة الطبقة الرأسمالية في امتصاص دماء الكادحين وإن أخرجت ذلك كله في مسرحية طريفة اسمها " الحرية والإخاء والمساواة " ! وهذا كله في السياسة الداخلية ..

أما في السياسة الخارجية فالأمر أدهى وأمر .

فالقرن الجاهلى العشرون هو الذى شهد ابشع حالات قانون الغاب : القوى يأكل الضعيف !

فى حربين عالميتين متتاليتين شهد الناس أفظع فنون العدوان فى التاريخ ، من غازات سامة وقنابل محرقة وتدمير جماعى وقتل للنساء والأطفال والشيوخ والمدنيين غير المحاربين .. إلى أن كانت القمة قنبلتى هيروشيما ونجازاكى الذريتين ، اللتين ما تزالان حتى اليوم بعد أربعين سنة من إلقائهما تنتجان أجنة مشوهة بفعل الإشعاع الذى السام ، وذلك غير الخراب المدمر الذى أحدثتاه وقت إلقائهما فى مساحة كبيرة من الأرض قتلتا فيها كل من عليها من الأحياء من البشر والدواب والشجر ، وحرمتا الحياة فيها لأجل غير معلوم !

والقنبلة الذرية لعبة صغيرة إلى جوار المدمرات التى اخترعت بعد ذلك ، والتى تهدد الحياة فى أى حرب تالية تقوم بين الجيوش ويصلاها الآدميون !

وذلك إلى إباحة الكذب الدولى والخيانة على أنهما عملة " شرعية " فى عالم السياسة الدولية !

تبرم المعاهدات لكى تنقض ! ويعلم المبرمون جميعا أنها حبر على الأوراق ! وأنه لن يتقيد بها أى طرف إلا ريثما يجد الفرصة السانحة للخروج عليها وإلقائها طعمة للنيران !

وتتكون عصبة للأمم وهيئة للأمم كلتاهما ستار للسياسة العدوانية التى تتخذها " الدول العظمى " ضد الدول الصغار ! وانظر موقف هيئة الأمم " الموقرة " من أية قضية يكون المسلمون طرفا فيها أمام غير المسلمين ! يقع العدوان على المسلمين فى أى مكان فى الأرض فتمرره الهيئة الموقرة باحتجاج شفوى على أقصى تقدير لا يغير شيئا من الواقع ولا يسمن ولا يغنى من جوع ! ويقع الدفاع من المسلمين ضد أى عدوان واقع عليهم فتجند هيئة الأمم قواتها لتأديب المدافعين ! لأنهم تجرءوا فردوا على المعتدين !س

وذلك بخلاف الوسائل الفردية التى تستخدمها " الدول العظمى ! " بطريقها المباشر لتنفيذ " غاياتها " النبيلة !

حين قامت ثورة المجر سنة 1956 ميلادية وجدت روسيا فى نفسها من " النيل " ما تحرك به الدبابات الشاهقة تهدم به البيوت على أصحابها أحياء وتردمهم فى الركام لأنهم

تجرءوا فطلبوا أن يمنحوا حرية التصرف بأنفسهم فى أمر أنفسهم دون وصاية الدولة الروسية عليهم .. فهل تقاوم الردة إلا بالقتل الجماعى ؟! إلا أن تكون ردة عن دين الله ! فما أشد همجية المقاتلين يومئذ إذا قاموا يقاتلون المرتدين ويدعونهم إلى الرجوع فى دين الله !

كذلك حين قام الأفغانيون يقولون نريد أن تكون لنا الحرية فى أن تكون مسلمين ! فما " أنبل " الجيوش الروسية التى تصب فوقهم القنابل السامة وقنابل النابالم والتدمير الجماعى للقرى وتحريق المزروعات من الجو وحرب الجراثيم وكل محرم فى عرف " الإنسان " ..

أما المخابرات الأمريكية فالأرض كلها مجال لمؤامراتها بغير حساب ..

نريد انقلابا هنا .. ونريد تغييرا هناك !

وسرعان ما تنقلب الأرض وتتغير الأحوال !س

وكل الوسائل حلال !

الكذب والغش والتصفية الجسدية وشراء الضمائر بالمال !

المهم أن تنفذ الغاية .. والغاية والوسيلة كلتاهما غارقة فى الأوحال !

يقول كاتب غربى مشيرا إلى هذه الحقائق بلسان ساخر :

" بعض الناس يقض مضاجعهم ما يقترفه العالم الرأسمالى من جرائم وآثام ، فيظلون عميا لا يرون جرائم البلشفية وإفلاسها .. وكثير منهم يستغلون نقائض العالم الغربى ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة .. أما أنا فأقول : لعن الله كليهما " "[٩]

(2) فى الاقتصاد :

لم يكن النظام الإقطاعى متمشيا مع الدين الربانى فى صورته ومضمونه ، وال كانت فيه أى ذرة من العدل ، وإن كانت الكنيسة أوهمت الناس أنه هو النظام الربانى الدائم الثابت الذى لا يتغير ، لأن أوضاع الناس فيه هى الأوضاع التى قدرها الله منذ الأزل ورضى عنها ، واقتضت مشيئته أن يظل الناس عليها إلى الأبد ! وأنه من رضى بما فيه من هوان ومذلة وشظف ومشقة فقد استحق من الله الجنة والرضوان !

"[٩] " من كلام " لويس فيشر " فى كتاب " الصنم الذى هوى " (ترجمة فؤاد حمودة) ، ص 274 من الترجمة العربية) عن كتاب العلمانية تأليف : سفر عبد الرحمن الحوالى .

ولكن الناس حين خرجوا من الدين على خط العلمانية لم يستبدلوا بالإقطاع ما هو خير منه ، سواء فى الرأسمالية أو الشيوعية ، بل ظلوا ينتقلون من جاهلية إلى جاهلية حتى هذه اللحظة ، وكلما حاولوا أن يصلحوا الظلم جاءوا بظلم جديد . وهذا هو شأن البشر دائما حين يشرعون لأنفسهم ويرفضون الهدى الربانى ، ينقسمون أولا إلى سادة وعبيد ، سادة فى أيديهم المال والسلطان ، يشرعون ، وحين يشرعون فإنهم يضعون القوانين التى تضمن مصلحتهم وتسخر الآخرين لهم ، وعبيد ليس فى أيديهم مال ولا سلطان ، فلا يشرعون ، إنما يقع عليهم ما يضعه السادة من تشريعات ، ويسخرون – رضوا أم أبوا – لمصلحة أصحاب السلطان .. ومن جهة أخرى يصيبهم الخبل والاضطراب والتخبط نتيجة القصور البشرى والجهل البشرى والعجز عن الإحاطة والعجز عن رؤية المستقبل الذى ينبنى على الحاضر ، نعم ، ولكنه مع ذلك غيب لا يمكن التنبؤ به عن يقين .

ولم يكن الإقطاع – كما أسلفنا – نظاما ربانيا ، ولا كانت فيه ذرة من عدل .. ولكن النفوذ الذى كان للدين على القلوب – مع كل ما كان فى ذلك الدين من تحريفات ، وفى أهله من فساد – كانت له جملة من الآثار فى أهل الريف الأووربى الذى يعيش فى ظل الإقطاع . فمن جهة كان عند الناس " أخلاق " يتعاملون بها ، مستمدة من تعاليم ذلك الدين ، وكانت هذه الأخلاق أبرز ما تكون فى قضية العفة الجنسية وقدسية الرباط المقدس بين الزوجين ، وكانت كذلك تشمل حسن الجوار وترابط أفراد المجتمع عن طريق التزاور والمجاملات الاجتماعية ، ومن جهة أخرى كان فى نفوس الناس رضى وقناعة تجعل الحمل العصبى الذى يعانونه محتملا فى النهاية رغم سوء الأحوال الاقتصادية إلى أقصى حد .. وما بنا أن ندافع عن الظلم المتمثل فى الإقطاع ، ولا حتى عن الرضى الذليل الذى كانت الكنيسة تطلبه من الفلاحين مقابل الوعد بنعيم الآخرة ، فإن الدين الصحيح يطلب من الناس أن يثوروا على مثل ذلك الظلم ويصححوه بتحكيم شريعة الله . ولكنا نقرر واقعا تاريخيا كان قائما بالفعل بخطئه وصوابه ، لنقيس به الواقع التاريخى الذى تلاه على خط العلمانية حين خرج الناس من نفوذ ذلك الدين .. فقد بقى الظلم – من حيث المبدأ – كما هو ، ولكن ذهبت الأخلاق ، وذهب الرضى من نفوس الناس ! واصبح الحمل العصبى الذى يعانونه

أبشع من أن يطاق ! فانتشر الجنون والقلق والانتحار والحالات العصبية والنفسية وإدمان الخمر والمخدرات والجريمة ..

لم تكن " المكيافيللية " فى الحقيقة مقصورة على عالم السياسة . إنما كانت دينا جديدا حل محل الدين المخلوع ! الغاية تبرر الوسيلة . لا فى السياسة فقط ، ولكن فى الاقتصاد والاجتماع كذلك .. بل فى كل شئ تدخل فيه الوسائل والغايات ..

يقول " سول " فى كتاب " المذاهب الاقتصادية الكبرى " (ترجمة الدكتور راشد البراوى ، ص 50 – 51 من الترجمة العربية) عن الفترة التى نبذ فيها الدين ولكن ظلت بقايا القيم – قبل اندثارها – يبحث الناس لها عند سند غير الدين :

" سيطرت فكرة الآخرة على المذاهب السائدة خلال العصور الوسطى وإن لم تسيطر على العادات والتقاليد ، والمجال الدنيوى بما فيه الحياة الإنسانية نفسها ليس سوى مكان يستعد فيه الناس للحياة بعد الموت بما يشتمل عليه من ثواب وعقاب ، فكان على المرء أن يتحمل الألم وهو عالم أنه ليس إلا مقدمة لما يتوقع فى حياة مستقبلية .. أما الدافع الفكرى على تقويم العادات الاجتماعية أو زيادة الرفاهية الدنيوية فكان ضئيلا ، اللهم إلا من حيث الفائدة الروحية التى يمكن اجتناؤها .

" والآن تحول الاهتمام فأصبح محصورا فى تحسين الحياة على الأرض ، وكشفت العلوم والمخترعات عن إمكانيات الأرض لذاتها ، لقد كانت المكاسب المادية ظاهرة فى كل شئ ، وكان لا حد لها من بحث وجود أساليب أفضل وأيسر لإنتاج الأشياء ، وسرت روح المغامرة .

" وهنا برز السؤال التالى : أليس فى وسع الفلسفة أن تعالج النظم البشرية بنفس الطريقة التى تدرس بها الأشياء المادية ؟

" وكان الجواب بالإمكان . ذلك أن المطلوب إنما هو تطبيق العقل على الأساليب التى يستخدمها الناس كيما يعيشوا (فى الأصل : كيما يعيشون) معا ، وراح الكثيرون يصوغون الخطط والمشروعات التى تكفل قيام الحياة المثالية أو اليوتوبيا .

" وصار لزاما على الذين نبذوا الإيمان باله كلية أن يبحثوا عن بديل لذلك ، ووجدوه فى الطبيعة .. أما الذين ظلوا على استمساكهم بالدين ولو باللسان – وإن لم يكن فى الواقع

كما هو أغلبهم – فقد اعتقدوا أن الله يعبر عن إرادته عن طريق الطبيعة وقوانينها وليس بوسيلة مباشرة . وبذلك لم تعد الطبيعة مجرد شئ له وجود فحسب ، وإنما هو شئ ينبغي أن يطاع ، وصارت مخالفتها دليلا على نقص فى التقوى والأخلاق " .

ويقول راندال فى كتاب " تكوين العقل الحديث " (ج 2 ، ص 468 من الترجمة العربية) عن الفترة التالية التى تم فيها الانسلاخ من القيم كلها بعد فقدان معينها الحقيقى وهو الدين :

" هكذا كان العلم (يقصد علم الاقتصاد السياسى) يبدو فى الظاهر محاولة مجردة عن المصلحة ، للوصول إلى فيزياء اجتماعية للثورة ، لكنه كان فى الحقيقة تبريرا منظما للمطالب التى تهدف إلى زيادة حرية جمع المال وتستعين بالعلوم الجديدة البشرية والطبيعية "

ويقول " روبرت داونز " فى كتاب " كتب غيرت وجه العالم " (ترجمة أحمد صادق وزميله ، ص 73 من الترجمة العربية) :

" النظرية الأساسية فى كتاب ثروة الأمم "[١٠] نظرية ذات نزعة مكيافللية ، وهى أن العامل الأول فى نشاط الإنسان هو المصلحة الشخصية ، وأن العمل على جمع الثروة ما هو إلا مظهر من مظاهرها . وبذلك قرر أن الأنانية والمصلحة الشخصية تكمن وراء كل نشاط للجنس البشرى . وصارح الناس باعتقاده أنها ليست صفات ممقوتة يجب الابتعاد عنها ، وإنما هى على العكس عوامل تحمل الخير إلى المجتمع برمته . وفى رأيه انه إذا أريد توفير الرفاهية للأمة فلابد من ترك كل فد يستغل أقصى إمكانياته لتحسين مركزه بشكل ثابت منظم دون تقيد بأى قيود . فللحصول على غذائنا لا نعتمد على كرم الخمار "[١١]" أو الخباز أو الجزار ، وإنما هم يقدمونه لنا بدافع من مصلحتهم الشخصية ، وإنا عندما نخاطبهم لا نتجه إلى ما فيهم من دوافع إنسانية ، وإنما نتجه إلى مصلحتهم المادية ، ولا نكلمهم عن احتياجاتنا ، بل عما يعود عليهم من نفع وفائدة " .

هذه الصورة المادية البحتة هى التى شكلت روح الرأسمالية ورسمت سمات الحياة فى ظلها ، ففقد الناس آدميتهم بالفعل وصاروا إلى ذلك المسخ الذى يعيش اليوم فى الغرب الرأسمالى .

" ١٠ " كتاب ثروة الأمم هو من تأليف " آدم سميث " فيلسوف الرأسمالية وإمامها الفكرى وقد كان له دوى هائل فى الغرب .

" ١١ " لاحظ أثر الجاهلية فى اعتبار الخمار واحدا من مقدمى الغذاء .. بل فى مقدمتهم !

ينقل كنث لن فى كتابه " تطور المجتمع الأمريكى " (ترجمة نعيم موسى – ص 112 من الترجمة العربية) من كلام جروج فيتزهيو ، أحد الذين ساءهم وضع الرأسمالية فى نهاية القرن الماضى ما يلى :

" إننا جميعا فى الشمال والجنوب نعمل فى تجارة الرقيق الأبيض . وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه .. وهذه التجارة أشد قسوة من تجارة الرقيق الأسود لأنها تفرض المزيد من العمل على عبيدها .. وفى الوقت الذى لا تحميهم فيه ولا تسوسهم برفق تفاخر بأنها تفرض المزيد (أى من العمل) ..

" نعم إنه (أى العامل) بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حرا ، إلا أنه يظل يرزح تحت عبء العناية بعائلته وبيته ، مما يجعل حريته سخرية جوفاء باطلة ، فى حين يبقى رب العمل حرا بالفعل ، ويستطيع أن يتمتع بالأرباح التى جناها من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاهيتهم " .

أما ما تلا تلك الفترة حتى اليوم فى العالم الرأسمالى فمعروف لا يحتاج إلى بيان .. ففوارق الدخل بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فوارق بشعة إلى حد مذهل .. ولا يأتى هذا الربح المتضخم – كما أسلفنا فى فصل الديمقراطية – إلا من الوسائل الخسيسة التى تستخدمها الرأسمالية لتحقيق غاياتها الخسيسة ، وكلها محرم فى دين الله :

(1) الربا ..

(2) أكل مال الأجير وعدم توفيته حقه ..

(3) إفساد فطر الناس وأخلاقهم ليقبلوا على منتجات ليس فيها فائدة حقيقية لهم ، ولكنها تدر على الرأسماليين أرباحا طائلة لا تدرها المنتجات الجادة التى يحتاج إليها الناس حقا فى حياتهم النظيفة المستقيمة .

(4) وأخيرا الاحتكار ..

والنتيجة الأخيرة التى تحققها الرأسمالية العلمانية من طرفيها المتمثلين فى أصحاب رؤوس الأموال والعمال ، هى الفساد الخلقى الفاحش ، والقلق العصبى الذى يؤدى إلى الانتحار

والجنون والخمر والمخدرات والجريمة وتفكك الأسرة وتشريد الأطفال والهبوط المستمر بالإنسان إلى عالم الآلة وعالم الحيوان ..

أما الشيوعية فربما كانت أسوأ بديل عرفته البشرية إلى اليوم ..

حقيقة إن الشيوعية هى النظام الجاهلى الوحيد – حتى اليوم – الذى فرض على الدولة كفالة كل فرد يعيش فى ظلها ، ولكن ذلك – كما أسلفنا – لم يكن كرما إنسانيا منها ، فهى تأخذ مقابل ذلك الجهد الفرد كله ، و" من لا يعمل لا يأكل " على الحقيقة لا على المجاز . ثم إن الدولة تستذل الناس بلقمة الخبز على نحو غير مسبوق فى كل النظم التى مرت بها الجاهلية البشرية على الأقل فى التاريخ الحديث .

وربما كان من الحق أن الناس كانوا دائما فى جاهليات التاريخ مستذلين بلقمة الخبز ، يبيعون مقابلها بعض كرامتهم أو كلها ، وبعض إنسانيتهم أو كلها .. ولكن النظام البوليسى الصارم الذى يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس ، ويمنع الناس بالرعب و الإرهاب أن يفتحوا أفواههم بكلمة نقد واحدة ضد الدولة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام .. إنه ليفرض على الناس – مقابل لقمة الخبز – قدرا من الذل ومن ضياع الكرامة الإنسانية لا مثيل له – فى نوعه ودرجته – فى كل النظم التى تزعم أنها نظم " حضارية " على مدار التاريخ !

وهذا فوق التفرقة الضخمة فى كل جانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجرد فرد فى القطيع ، وبين أن يكون عضوا فى الحزب ولو فى أسفل درجاته فضلا على الدرجات العليا .

يقول " ميليوفان دجيلاس " نائب الرئيس " تيتو " فى كتاب " الطبقة الجديدة " :

" إن الطبقة البيروقراطية الشيوعية الجديدة صاحبة الامتيازات الضخمة تستخدم جهاز الدولة كستار وأداة لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة .. وإذا ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة ، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق فى إطار تلك الحرية فإن الشيوعية تتجه فى النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة.

" إن الطغيان الشيوعى والإرهاب فى أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسى " .

" لقد سبق أن أعلن ستالين عام 1936 مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفيتي أن الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا .. وفى الحقيقة لقد تم فى المعسكر الشيوعى القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التى استؤصلت تماما من الجذور . ولكن مع زوالها بدأت تبرز فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى مثيلا .

" ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أى طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ ، كما أثبتت فى الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام ، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبقى جديد.

" لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب ، بل أصبحت ملكا مكتسبا للطبقة الحاكمة وللأعضاء القياديين للحزب والبيروقراطيين السياسيين "

" لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف ، وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب ، إنما على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات ، أما بقية الأعضاء من دونهم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية "

" وليس هناك أية طبقة أخرى فى التاريخ تشابه الطبقة الجديدة فى وحدة تماسكها ، ووحدة الفكر والعمل فى دفاعها عن نفسها ، وفى قدرتها على إحكام القبضة على كل ما هو واقع تحت سيطرتها منا لملكية الجماعية حتى السلطة الاستبدادية المطلقة " "[١٢]

وأما " الأخلاق " فى ظل الاقتصاد العلمانى الشيوعى فلا مجال للحديث عنه بعد الذى فصلناه فى فصل " الشيوعية " . ولسنا نقول : إن هناك " أخلاقا " أفضل منها فى ظل الاقتصاد العلمانى الرأسمالى . كلاهما بلا أخلاق ، كلا المعسكرين يهبط بالإنسان إلى مرتبة

"[١٢] " مقتطفات من الكتاب من صفحات 51 ، 54 ، 78 ، 81 ، 83 ، 84 مأخوذة من كتاب " العلمانية " لسفر عبد الرحمن الحوالى ، وهو من أحسن ما كتب فى موضوع العلمانية .

الحيوان . فإذا كان هناك فارق بين الحيوانات السائبة والحيوانات المقيدة داخل الحظيرة فهو الفرق بين التسييب والتقييد .. وليس فارقا فى " نوع " الحيوان ..

(3) فى الاجتماع :

كان الإقطاع ظالما كما قلنا ، ولكن بعض الجوانب الاجتماعية فيه كانت تحكمها أعراف مستمدة من روح الدين .. ومن ذلك الحفاظ على الأسرة ، والزواج المبكر ، وقوامة الرجل وقيامه بالإنفاق ، واستقرار المرأة فى بيتها ، وتفرغها للأمومة وتدبير المنزل ورعاية النشء ، ومحافظتها على عرضها قبل الزواج وبعده ، واعتبار ذلك جزءا من مقومات الأسرة وركنا أساسيا من أركانها ، والتعاون بين أفراد المجتمع .. وما إلى ذلك من العلاقات الاجتماعية القائمة على وصايا الدين .

ولكن ذلك كله لم يعجب المنسلخين من الدين فقرروا تغييره ، وإنشاء بديل منه لا يقوم على أساس الدين !

كان التغيير فى المبدأ هو تغيير " السند " أو " المنبع " مع محاولة المحافظة على شئ من الأخلاق ، أى البحث عن منبع آخر للقيم الاجتماعية غير الدين .. فليكن هو " الطبيعة " أو يكن هو " النفس الإنسانية " ذاتها .. المهم ألا يكون المنبع هو الدين ، ولا يكون المرجع الذى تستمد منه القيم هو الوحى الربانى !

ولكن القيم لم تكن لتستمر فى فاعليتها بعد أن تنقطع عن معينها الحقيقى وهو الدين والوحى الربانى ..

ثم إن الهزات العنيفة التى أحدثتها الثورة الصناعية جاءت والقيم مهتزة بالفعل ، قائمة على غير أساس حقيقى يقيها من الهزات . فإذا انهارت هذه القيم سريعا فلا عجب .. وإذا أفلح الشريرون فى هدمها بوسائلهم الشريرة بعد أن استعصت عليهم خلال عدد متطاول من القرون فلا عجب كذلك .. فالجدار القائم على غير أساس ينتظر من يهزه ليسقط إذا لم يتداع من تلقاء نفسه ، بينما الجدار القائم على أساس متين لا يتزلزل إلا بالجهد الجهيد .

جاءت الثورة الصناعية " فتحررت " المرأة .. أى استعبدتها (والرجل كذلك) لأغراضها الخاصة . وكانت " أغراضها " قدرا من الشر لا يخطر على بال إنسان ..

تحررت المرأة فتحلت من القيود كلها ، وفى مقدمتها قيود الدين وقيود الأخلاق .

وطالبت بالمساواة الكاملة مع الرجل فرفضت أن يكون قيما عليها لأن القوامة لا تصلح بين الأنداد !

واشتغلت ، فانشغلت عن مهمتها الأولى فى تربية النشء ..

وتفككت الأسرة وانحل البيت وتشرد الأطفال ، وتكونت منهم عصابات جانحة ترتكب الجرائم لمجرد سد الفراغ .

وانحلت روابط المجتمع فصار كل إنسان يعيش وحده .. حتى الأسرة .. الزوج له عمله ومغامراته ، والزوجة لها عملها ومغامراتها .. والأولاد يغادرون البيت فى سن معينة ولا يعودون بعد ذلك ، ولا يربطهم بالأب والأم رباط ، إلا زيارات خاطفة فى مناسبات متباعدة فى أحسن الأحوال .. ويكبر الأبوان فى تلك العزلة الباردة فلا يجدان من يطرق عليهما الباب .. فينشدان سلواهما فى الكلاب !

وانتشر الشذوذ لأسباب كثيرة ، من بينها – كما يقولون هم بأفواههم – رفض المرأة للقوامة وضياع سيطرة الأب ..

وفى جانب آخر من الأرض قامت " فلسفة " بشرية مغايرة ، وإن كانت تشترك مع سابقتها فى كثير من السمات !

تشترك معها فى إخراج المرأة من البيت وشغلها عن الأسرة والأولاد .

وتشترك معها فى تحطيم كيان الأسرة ..

وتشترك معها فى حل روابط المجتمع ..

ولكنها تختلف عنها فى الطريقة !

فى الأولى يتم تحطيم المجتمع عن طريق تضخيم الفرد وجعله هو الأساس . فيتحطم المجتمع نتيجة المبالغة فى إحساس الفرد بذاتيته الزائدة عن الحد .

وأما الثانية فتجعل المجموع هو الأساس إلا الفرد ، فتسحق الفرد من أجل المجموع ، ثم تعود فتحطم المجتمع نتيجة تحويله إلى مجموعة من الأصفار كل منهم بلا مشاعر ولا كيان !

(4) فى العلم :

بدأ الصراع بين الدين والعلم حين هاجمت الكنيسة العلماء الذين قالوا بكروية الأرض وهددتهم بالحرق أحياء فى الأفران .. وكانت الكنيسة هى المعتدية بلا شك ، وكانت حماقة شنيعة منها أن تقف هذا الموقف من أمور علمية بحتة ، يخطئ العلماء فيها أو يصيبون ولكنها تظل فى دائرة العلم لا يتدخل فيها " رجال الدين " لأن الدين الصحيح لم يحرم البحث العلمى ، وإنما لفت نظر البشر إلى آيات الله فى الكون ، وقال لهم تفكروا فيها وتدبروا لتعرفوا قدرة الخالق العظيم ، دون أن يقيدهم بنظرية معينة فى تفسير ظواهر الكون ، بل ترك ذلك للعقل البشرى يحاول فيه بقدر ما يطيق ..

ولكن الاحتجاج بحماقة الكنيسة لفصل الدين عن العلم أو بذر بذور العداء بين الدين والعلم كان فى ذاته حماقة أشد !

فلتكن الكنيسة حمقاء بقدر ما تكون .. ولكن الفطرة السوية لا تفصل بين الدين والعلم ، لأن كلا منهما نزعة فطرية سوية لازمة للكيان البشرى ، ولازمة لمهمة الخلافة التى وجد الإنسان من أجلها فى الأرض .

الإنسان عابد بطبعه ، راغب فى المعرفة بطبعه ..

ولا تعارض فى الفطرة السوية بين نزعة العبادة ونزعة المعرفة ، ولا بين الإيمان بالغيب والإيمان بما تدركه الحواس .

ولقد خلق الله الإنسان ليعبده :

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56)} [سورة الذاريات 56/51]

وجعل من بين العبادة عمارة الأرض :

{هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} [سورة هود 61/11]

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ} [سورة الملك 15/67]

وجعل من الأدوات المعينة على عمارة الأرض العلم النظرى فى صورة " معلومات " عن الكون ، والعلم التطبيقى فى صورة تسخير طاقات السماوات والأرض للإنسان .

{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)} [سورة العلق 96/4-5]

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (12)} [سورة الإسراء 12/17]

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً} [سورة الجاثية 13/45]

ومن هنا يكون العلم ذاته جزءا من العبادة المطلوبة من الإنسان ، يستوى فى ذلك العلم بأمور الدنيا والعلم بأمور الدين ، فإن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى تحتاج إلى هذا العلم وذاك .. العلم الدنيوى من أجل العمارة المادية . والعلم الدينى لجعل هذه العمارة المادية مستقيمة على المنهج الربانى ، وتلك هى الخلافة الراشدة المطلوبة من الإنسان .

من أجل ذلك لا يوجد فى الدين الصحيح ولا فى الفطرة السوية تعارض ولا تنازع ولا خصومة بين الدين والعلم ! إنما تعمل نزعة العبادة ونزعة المعرفة فى تناسق كامل فى النفس السوية دون قلق ولا حرج ولا تصادم ولا نزاع ..

وكذلك قامت الحركة العلمية الهائلة التى قامت فى العالم الإسلامى فى ظل العقيدة ، بل بدافع من العقيدة ! فمن المعلوم من التاريخ أن المسلمين لم يصبحوا أمة علم إلا بعد أن دخلوا فى الإسلام !

ولقد كان النموذج الإسلامى قائما حول أوروبا من الشرق والغرب والجنوب .. بل إن أوروبا لم تعرف العلم الحقيقى إلا حين أرسلت أبناءها يتعلمون فى مدارس المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وصقلية الإسلامية ، فلئن كانت الكنيسة قد ارتكبت حماقتها بمعاداة العلم والعلماء ، فلقد كان الحل هو نبذ دين الكنيسة الفاسد لا نبذ الدين كله ، وقد رأوا نموذجا مفلحا ومثمرا منه فى العالم الإسلامى .. ولئن كانت " المكايدة " قد أصبحت هى العملة المتبادلة بين الكنيسة من جهة والعلماء من جهة ، فلقد كان المقتضى السليم لذلك هو أن يرد العلماء للكنيسة إلهها الزائف الذى تعذب العلماء باسمه وتطاردهم ، ويفروا إلى الله الحق الذى وجدوه معبودا عند أولئك العلماء الأفذاذ الذين تتلمذوا عليهم وتعلموا العلم على أيديهم ، والذى وجدوا العبادة الصحيحة له تخرج مثل هؤلاء الأفذاذ ، وتتيح لهم حرية البحث العلمى بلا قيود .

ولكن رد الفعل للحماقة التى ارتكبتها الكنيسة كان حماقة جديدة ارتكبها " العلماء " !
لقد كانوا معذورين فى أن يتشككوا فى كل حرف تقوله الكنيسة وتزعم أنه من عند الله ، وفى أن يبدأوا العلم كله من نقطة الصفر ، ويجربوا لأنفسهم ليثبتوا .. فهذا على أى حال هو المنهج العلمى الصحيح الذى تعلموه على أيدى أساتذتهم المسلمين . وكلنهم غير معذورين حين تصل بهم حقائق العلم إلى رؤية القدرة المعجزة للخالق ، فيلوون رؤوسهم فى كبر ، أو يهزون أكتافهم فى استهتار " غير علمى " ! ويقولون إنه ليس الله ، ولكنه الطبيعة !

هنا الحماقة التى لا يبررها شئ .. لا الأمانة العلمية ولا الإنسانية الحقيقية للإنسان !

ولكن أوروبا بدأت من هذه الحماقة ثم لجت فيها إلى أبعد الحدود ..

مجرد ذكر اسم الله فى البحث العلمى يعتبر إفسادا للروح العلمية ، ومبررا لطرح النتائج العلمية كلها ولو كانت كلها صحيحة بمقياس العلم ذاته الذى جعلوه إلها من دون الله !

بل مجرد الاعتقاد بوجود الله ، وأنه هو خالق الخلق وخالق الكون كفيل بإخراج العالم من دائرة العلماء الذين يعتد بهم ويؤخذ بآرائهم ولو كانت آراؤه صحيحة بمقياس البحث العلمى ، بل إنه يحيط ذلك العالم بالارتياب والشك فى كل ما يقول ، ويجعله موضع الزراية من العلماء " الحقيقيين " ! الذين لابد أن يكونوا ملحدين لتكون آراؤهم موضع التسليم !

أى زراية بالعلم ذاته تؤدى إليه هذه الحماقة ؟!

بل أى روح " غير علمية " تلك التى تسيطر على " العلماء " فى تلك الجاهلية التى تقوم باسم العلم ؟!

ما التعصب إذن ، وما فقدان " الروح العلمية " والأمانة العلمية إذا كان هذا علما وأمانة وروحا علمية؟

وأى انتكاسة فى عالم " القيم " وعالم " الإنسان " أكبر من تلك الانتكاسة الشنيعة التى ترفض " الحقائق " بمجرد الأهواء ؟!

وكيف – كما قلنا من قبل – كيف يكون الشئ ذاته صحيحا " وعلميا " إذا نسب إلى الطبيعة وغير صحيح وغير علمى إذا نسب إلى الله ؟! ويكون هذا هو الشرط الذى لا يقبل غيره للدخول فى مجال العلم والعلماء ؟!

وكيف يتأتى لهذه الجاهلية أن تفصل – فى النفس الواحدة – بين نزعتين فطريتين : نزعة العبادة ونزعة العلم ، فتقول للناس : إذا أردتم الله فاتركوا العلم وإذا أردتم العلم فاتركوا اله ، وتسمى هذا " علما " و" روحا علمية " ؟ وما الفرق بين هذه الحماقة وحماقة الكنيسة التى من أجلها حاربها العلماء ؟!

ألم تقل الكنيسة نفس القولة ولكن من الجانب الآخر ؟! قالت ك إذا أردتم الله فاتركوا هذا العلم ، وإذا أردتم هذا العلم فأنتم خارجون على الله !

وحين نستبدل حماقة بحماقة هل نكون راشدين ؟ وهل يحق لنا أن نستعلى بحماقتنا على حماقة الآخرين ؟!

على أن الحماقة البديلة لا تقف عند حد تمزيق البشرية بين نزعتيها الفطريتين ، مما يشكل سببا من الأسباب الكثيرة للاضطراب والقلق النفسى والعصبى الذى تعانيه الجاهلية المعاصرة . إنما يستخدم العلم عن قصد فى إفساد العقيدة وإفساد الأخلاق ..

فبين الحين والحين تخرج " أبحاث علمية " كاذبة – ويعلم أصحابها أنهم كاذبون – تزعم أن الإنسان قد " خلق " الخلية الحية فى المعمل ! وتسفر الحقيقة بعد الاستفسار والتقصى أنهم أعادوا تركيب خلية حية فى المعمل من أجزاء حية أخذت من مجموعة من الخلايا الحية !!

ولكن هذا الدجل " العلمى " يراد به أن يقال للناس ها هو ذا الإنسان قد خلق فلم تعد هناك ضرورة للخالق ! أى يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحاد فى الأرض ، وتتقبله المجلات " العلمية " الرصينة التى ترفض أى بحث علمى يذكر فيه اسم الله !

{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (45)} [سورة الزمر 45/39]

وسيظل التحدى الربانى قائما فى وجه الملحدين :

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35)} [سورة الطور 35/52]

وكما يستخدم العلم الزائف لنشر الإلحاد تستخدم ثمار العلم لإفساد الأخلاق . وأوضح الأمثلة على ذلك حبوب منع الحمل التي قول الأطباء " الأمناء " – وقليل ما هم – إنها

ليست مأمونة تماما ، وإنها قد تسبب أضرارا خطيرة ن وإنها ينبغى ألا تستخدم إلا بإشراف الطبيب .. هذه الحبوب تباع فى الصيدليات بسعر منخفض يكاد يساوى سعر التكلفة ، ويباع لأى فتاة تطلبه – وتكرره – دون تذكرة طبية .. لأنها – كما لا يخفى – أداة جبارة لنشر الفاحشة فى الأرض ، لأن الفتاة التى تستطيع أن تأمن نتائج اتصالاتها الجنسية غير المشروعة أيسر انزلاقا من التى تخشى حدوث المتاعب من هذه الاتصالات .

وذلك فضلا عن صرف جهود كثيرة فى أبحاث " علمية " بقصد اختراع المدمرات البشعة بغير موجب حقيقى ، فقد كان انتصار بعض البشر على بعض ممكنا بغير كل تلك البشاعة فى أدوات التدمير .. " ١٣"

وهذا الشر العميق كله قد نشأ من " علمانية " العلم .. أى من ذلك المبدأ الملوث الشرير : مبدأ فصل الدين عن الحياة ..

(5) الأخلاق :

ربما لم يكن هناك مجال تأثر بالعلمانية بقدر ما تأثرت الأخلاق ..

ذلك أن الدين هو المنبع الطبيعى للأخلاق ، فإذا جفف هذا المنبع أو جف بسبب من الأسباب فلابد أن يتبعه حتما انهيار تدريجى فى الأخلاق ينتهى إلى " اللاأخلاق " .

ولقد كانت " النهضة " فى أول عهدها تعتقد – ربما بإخلاص وحسن نية – أن فى إمكانها أن تجد للأخلاق منبعا آخر غير الدين .. من الطبيعة أو من النفس البشرية أو من أى مكان آخر .. والواقع أنهم كانوا فى أول مرحلة الفساد ، فكانوا هم أنفسهم لا يتصورون أن البشرية يمكن أن تعيش بلا أخلاق ، أو أنه سيأتى وقت عليها تكون عارية من الأخلاق . فكان المشكل بالنسبة لهم هو محاولة البحث عن منبع للأخلاق غير الدين ، حتى لا تتخذ تلك ثغرة يهاجمون منها من قبل ذوى الغيرة على الأخلاق وهم يومئذ غير قليل .. ولكن المنبع البديل – أيا كان هو – قد أثبت عجزه عن إنبات القيم التى يحتاج إليها الإنسان فى حياته ، ككل التصورات التى تخطر فى بال الفلاسفة ولا تتعدى أذهانهم إلى واقع الحياة !

" ١٣ " حدث فيما بين صدور الطبعة الأولى والطبعة الثانية من الكتاب حادث انفجار المفاعل النووى الروسى ، الذى تسربت منه الإشعاعات المدمرة . وتعرض لخطرها ملايين من البشر فى أوروبا . وهم فى حالة " سلم " لا حرب !

ثم جاءت أجيال أكثر علمانية من السابقة ، لأنها كانت قد بعدت أكثر عن المنبع الحقيقى للقيم ، فبدأت تناقش مبدأ القيم ذاته : هل هى ضرورية حقا للحياة البشرية ؟ وهل هى حقائق واقعية أم مجرد مثل خيالية معلقة فى الفضاء غير قابلة للتطبيق ؟ وإذن فلماذا لا نكون " واقعيين " ونتعامل مع الواقع البشرى كما هو ؟ أى بغير مثل وبغير قيم ؟!

وكانت هذه بداية موجة جديدة من الانحدار على المنزلق .. فإننا إذا سلمنا بالواقع الموجود اليوم على أنه هو الواقع الذى لا يمكن أن يوجد أفضل منه ، فما الذى يمنع هذا الواقع أن ينحدر غدا إلى هوة جديدة ، ثم ما الذى يمنعنا من مجاراته فى الهبوط بحجة الواقعية !؟

إن الذى يمنع من هذا شئ واحد ، هو وجود القيم الأصيلة التى نقيس إليها أفعالنا ومستوانا ، لنعرف على ضوئها أهابطون نحن أم مرتفعون .. فإذا وجدنا أننا هبطنا حاولنا أن نوقف هبوطنا ونصعد من جديد .. أما فى غياب الميزان فما المعيار ؟ إن الواقعية ليست معيارا يقاس إليه أى شئ ، ما دامت تعتبر الواقع هو المقياس ! والناس إذا أفلتت أيديهم من خيط الصعود الذى يشدهم إلى أعلى فلابد أن تهبط بهم ثقلة الشهوات وجواذب الأرض فيزداد واقعهم هبوطا على الدوام .. وما دام معيارنا هو الواقع ، فسيظل المعيار ذاته يهبط مع هبوط الإنسان ! ونظل نحن – بحجة الواقعية – نتابع الهبوط .

لقد كان القرن التاسع عشر " واقعيا " فنبذ القيم التى سماها مثالية – بمعنى غير واقعية – واعتبرها ترفا عقليا لا تطيقه طبيعة الحياة ..

وكانت نتيجة ذلك هى القرن العشرين ! قرن التفلت من القيود كلها ، والهبوط إلى الحمأة التى يستعفف عنها الحيوان !

وذلك أمر معروف من التاريخ وإن جادلت فيه الجاهلية المعاصرة ، وهى ليست أول جاهلية تجادل فى الحق وتنكر البديهيات ! إن أى جيل من أجيال البشرية أنكر القيم الإنسانية لم يقف حيث كان يوم أنكرها ، إنما ازداد هبوطا .. حتى أدركه الدمار !

ولنستعرض خط العلمانية مع الأخلاق من أوله لنعلم مدى الهبوط ..

ولنبدأ بالمفهوم الحقيقى للأخلاق ، الذى كانت تؤمن به أوروبا ذات يوم ثم ظلت تتخلى عنه خطوة خطوة وهى تسير مع الشيطان .

إن الأخلاق " ميثاق " شامل .. يشمل كل أعمال الإنسان .

{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)} [سورة الرعد 13/19-22]

والميثاق هو أصلا ميثاق مع الله ، تتفرع منه وتندرج تحته جميع المواثيق :

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [سورة النساء 4/58]

وأول الأمانات هى الأمانة المؤداة إلى الله ، ثم تأتى بعدها جميع الأمانات التى أبرز سياق الآية منها الحكم بين الناس بالعدل ..

وعلى هذا الأساس يكون للسياسة أخلاق ، وللاقتصاد أخلاق ، وللاجتماع أخلاق ، وللعلم أخلاق ، ولكل شئ على الإطلاق أخلاق .. ولا يكون هناك شئ واحد فى حياة الإنسان بلا أخلاق ..

ومنشأ الأخلاق ليس هو الفرض من الخارج . فى صورة أوامر ونواه وزواجر من عند الله أو من عند غيره ، إنما الله سبحانه وتعالى هو الذى يحدد ما هو حلال وما هو حرام ، وما هو حسن وما هو قبيح ، وما هو خير وما هو شر .. الخ فيتبعه المؤمنون التزاما بما أنزل الله ، وأما غير المؤمنين فيستمدون ذلك كله من عند غير الله . وفى الحالين لا يكون هذا هو منشأ " الأخلاق " عند هؤلاء وهؤلاء .. إنما يكون فقط هو منشأ " المعايير " التى تضبط الأخلاق .

إنما تنشأ الأخلاق – كما قلنا منق بل فى أكثر من موضع فى الفصول السابقة – من طبيعة الإنسان ذاته ، ومن أن له طريقين ، وأن له القدرة على التمييز والاختيار بين الطريقين :

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)} [سورة الشمس 91/7-10]

ومن ثم فالقيمة الخلقية لاصقة بأعمال الإنسان بحكم طبيعته .. وإنما تختلف القيم باختلاف واضعها : هل هو اله أم هم البشر . فإن كانت من عند الله فهذه هى القيم الحقيقية الصالحة ، لأنها من عند خالق الإنسان العليم به وبما يصلح له وما يصلحه :

{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14)} [سورة الملك 14/67]

وإن كانت من عند البشر فهى عرضة للأهواء وعرضة للاختلاف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وتاريخ البشرية فى جاهليتها هو الدليل ، يستوى فى ذلك أن يكون الجاهليون من الفلاسفة أو من عامة الناس !

ولقد كان هذا كله واضحا لأوروبا المسيحية فى الفترة التى سيطر فيها الدين على قلوب الناس ، بصرف النظر عما فى ذلك الدين الكنسى من انحرافات .. فقد سبق أن قلنا إن وجود الانحراف والتحريف فيه لم يمنع وجود بعض الحقائق لأنهم كما يقول الله عنهم : " فنسوا حظا مما ذكروا به " وبقى مما ذكروا به بعض أشياء .. وكانت القيم الخلقية من بعض هذه الأشياء .

ثم زحفت العلمانية شيئا فشيئا على الحياة الأوروبية فأقصت الدين عن الحياة بقدر ما تمكنت هى من الحياة .. ومع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق ، لأنها أصلا مستمدة من الدين .

وأول مجال أزيحت الأخلاق عنه هو مجال السياسة منذ قال مكيافيللى : إن الغاية تبرر الوسيلة .. ومعناها بصريح العبارة إسقاط الأخلاق من مجال السياسة ، وممارسة السياسة بلا أخلاق !

ثم أزيحت الأخلاق من المجال الاقتصادى منذ الثورة الصناعية بتحليل الربا ، وتحليل الغش والخداع والكذب وسرقة أجر الأجير وشغل الناس بتوافه الأشياء من أجل الربح ، وتحليل شن الحروب والاستعمار من أجل إيجاد أسواق لتصريف البضائع .. إلى آخر ما قامت به الرأسمالية من حيل غير شريفة للاستزادة من المال على حساب البشرية .

ثم أزيحت الأخلاق من مجال العلم ، فلم يعد هدف العلم البحث عن الحقيقة المجردة — له — إنما صارت تصاحبه المصالح والأهواء والشهوات التى أسلفنا نماذج منها فى إبعاد اسم الله عمدا من البحث العمى مع وضع بديل مزيف هو الطبيعة ، لا لأن هذه حقيقة ولكن لأنها تخدم هدفا معينا فى معركة معينة بين العلماء وبين الكنيسة ! ومن نشر أبحاث كاذبة بقصد نشر الإلحاد . ومن استخدام ثمار العلم لإفساد الأخلاق .. وغير ذلك مما كان مستحيلا أن يحدث فى ظل سيطرة الدين على مشاعر الناس ، ومن ثم التزامهم بأخلاقيات الدين .. ولكنه يحدث بسهولة فى ظل العلمانية التى تفاخر بإقصاء الدين عن كل مجالات الحياة !

ثم أزيحت الأخلاق من مجال الفكر . فلم يعد يحس المفكر أنه ملتزم بأمانة معينة هى فى أصلها الأمانة المؤداة إلى الله .. فحفلت وسائل الإعلام جميعا من أول لكتاب إلى التليفزيون ، مرورا بالصحيفة والمسرح والسينما والإذاعة ، بكل صنوف التضليل والكذب والخداع والغش وإفساد العقيدة وإفساد الأخلاق .

ثم أزيحت من مجال العلاقات الجنسية بصفة خاصة — وهى أدق مجالات الأخلاق — فقيل إن الجنس مسألة " بيولوجية " لا علاقة لها بالأخلاق ! أى مسألة ذكر وأنثى يجرى بينهما ما يجرى بين الذكر والأنثى .. بلا قيود ولا أخلاق ولا ضبط ولا تصعيد .. وكانت الحمأة الدنسة التى تردت فيها البشرية ، وكان السعار الجنسى المجنون الذى لا يشبع ولا يرتوى ولا يفيق ..

وأخيرا أفرغت الأخلاق ذاتها من مضمونها حين قبل إنه ليس لها وجود ذاتى ، إنما هى انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية ، أو إنها من مصنع العقل الجمعى وإنها تتغير على الدوام ولا تثبت على حال !

وسقط " الإنسان " بسقوط الأخلاق !

(6) فى الفن :

كان الفن فى أوروبا فى فترة الجاهلية الكنسية فنا دينيا بمعنى أنه موجه لخدمة الدين ، وكان يحمل كل ما فى العقيدة الكنسية من انحراف ، إذ كان كله موجها لتمجيد " الرب " الذى

ألهته الكنسية وهو المسيح عيسى بن مريم ، أو تمجدي الأقانيم الثلاثة عامة : الأب والابن وروح القديس ، مع مريم البتول ومجموعة من القديسين .. سواء بالشعر أو النثر أو الرسم أو التصوير (بمعنى إقامة التماثيل) .

وقد لاحظت فى كتاب " جاهلية القرن العشرين " ملاحظة خاصة بالفن الأوروبى ، وقلت إنها معروضة للدراسة لمن أراد أن يدرس ، تلك هى أن الفن الأوروبى فى جميع أدواره التاريخية كان مشغولا بالمعبود .. فحين كان المعبود فى الجاهلية الإغريقية مجموعة من الآلهة المختلفة توجه الفن الإغريقى إلى تلك الآلهة سواء فى الأساطير أو المسرحيات أو التماثيل . وحين انتقلت أوروبا إلى المسيحية عنى الفن بالإله كما صورته الكنيسة ، وحين كفرت أوروبا بإله الكنيسة وألهت الطبيعة اتجه الفن إلى المعبود الجديد وخاصة فى الفترة الرومانسية ، وحين صار المعبود هو " الإنسان " اتجه الفن كله إلى دراسة الإنسان فى جميع أوضاعه .

واليوم صارت المعبودات فوضى ، وتمثلت الفوضى كذلك فى الفن الأوروبى الحديث !

وهذه نقطة فنية على أى حال ليس مجالها التفصيلى فى هذا الكتاب إنما ينبغى أن تدرس دراسة نقدية متخصصة .

ثم إنى ألفت كتابا كاملا هو " منهج الفن الإسلامى " لأبين العلاقة بين الفن الصحيح والدين الصحيح ، وكيف تكون مجالات الفن الملتزم بالدين ، وكيف أن ارتباط الفن بالدين لا يضيق مجالاته كما يفهم البعض ، ولا يحوله إلى مواعظ دينية كما يفهم البعض الآخر ن إنما يوسع مجالاته فى الحقيقة ويعمقها ، ولكنه ينظفها فقط ويطهرها من الأرجاس .

وليس هنا مجال إعادة الحديث فى هذه الموضوعات ..

إنما نحن هنا نتحدث فقط عن آثار العلمانية فى الفن الأوروبى ..

فأول آثارها – فى التسلسل التاريخى – هو عبادة الطبيعة فى الفترة الرومانسية .

وليس ثمة عيب – كما قلنا من قبل – فى مناجاة الطبيعة والتفاعل معها والحفاوة بها ، فذلك كله أمر طبيعى فى النفس السوية . ذلك أن الله خلق الكون جميلا ثم جعل فى النفس البشرية حاسة تلتقط الجمال وتنفعل به . والقرآن يوجه الحس توجيها صريحا لرؤية الجمال فى

الكون والإحساس به ، لا فى الورود والأزهار والجبال والوديان فحسب ، بل فى الأنعام كذلك ، التى هى مظنة الفائدة وحدها .

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6)} [سورة النحل 16/5-6]

{وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)} [سورة الأنعام 6/99]

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)} [سورة النمل 27/60]

ولكن رؤية هذا الجمال والتفاعل معه والانفعال به تحدث به فى النفس السوية توجها إلى الله بالعبادة لأنه هو خالق هذا الكون الجميل ومسخره للإنسان ، وخالق هذه الحاسة الجمالية فى تركيب الإنسان ليستمتع بهذا الجمال .

أما النكسة العلمانية فى الحس الأوروبى المنسلخ من الدين فقد ذهبت فى طريق آخر مخالف ، فجعلت من هذا الحس الجمالى وثنية كاملة تعبد الطبيعة بدلا من عبادة الله . وقد وردت كلمة الوثنية بالذات ورودا مكررا فى شعر الرومانسيين كأنما هو أمر مقصود !

بل إن الرومانسية فى الحقيقة هى التى يسرت للحس الأوروبى الانزلاق إلى تلك المغالطة المكشوفة التى جعلت الطبيعة إلها بدلا من الله ، حتى سرت هذه المغالطة إلى " العلماء " أنفسهم فتعاملوا معها كأنها حقيقة واقعة .. بل صاروا فى النهاية يقبلونها — وحدها — على أنها هى العلم ، ويرفضون الحقيقة الأصلية وهى كون الله هو الخالق ، ويعتبرونها إفسادا لروح البحث العلمى !

ثم ذوت الرومانسية بعد فترة من الوقت وحلت محلها الواقعية رد فعل لها ، إذ كانت الرومانسية مغرقة فى الخيال المغرب فجاءت الواقعية لترد الناس وترد الفن إلى الواقع ..

ولكن أى واقع هو الذى ارتد إليه الفن وارتد إليه الناس ؟!

إنه الواقع الصغير .. الهابط .. المنسلخ من الدين .. من القيم .. من الأخلاق !

ففى الفترة التى استغرقتها الرومانسية وارتدت بعدها إلى الواقع كان الناس قد ساروا خطوات على خط العلمانية المنسلخة من الدين فهبطوا ، فجاءت الواقعية لترصد واقعهم حيث هم .. ثم تقول هذا هو الواقع البشرى !

فأما كون هذا هو الواقع الذى كان عليه الناس وقتئذ فهذا حق لا شك فيه ، وأما أن هذا الواقع البشرى على إطلاقه فأمر يكذبه التاريخ . تكذبه فترات الهدى فى حياة البشرية ، التى ارتفع الناس فيها إلى قمم تبدو – فى هذا الواقع المنحرف – كأنها خيالات ، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل ، وينبغى أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المستوى السامق أو يعودوا إلى قريب منه . وليس المطلوب من الفن الواقعى أن يدارى على هبوط الناس ولا أن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا ! كلا فالفن المزور لا يستطيع أن يعيش . ولكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنه واقع نعم ، ولكنه منحرف عن الأصل الذى كان ينبغى أن يكون عليه ، وبين تصويره على أنه هو الواقع الإنسانى الذى لا يمكن تعديله أو لا ينبغى تعديله أو لا يعنينا تعديله ! كلاهما تصوير للواقع . وكلن أحدهما يصور الواقع المنحرف بروح الإنكار ، ويدعو إلى الارتفاع عنه ، والآخر يعطيه شرعية الوجود فتكون النتيجة الحتمية – دائما – مزيدا من الهبوط !

نموذج الواقعية الهادفة هو سورة يوسف فى القرآن الكريم :

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)} [سورة يوسف 12/23-24]

{فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا

إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (31) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (32)} [سورة يوسف 12/31-32]

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة .. إنما اللقطة الأخيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع :

{قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)} [سورة يوسف 12/51-53]

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يدعى الواقعية وهو فى الواقع يدعو إلى الهبوط ! وهبه صادقا فى ادعاء الواقعية فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطة وحدها ويتجنب لحظات الارتفاع ؟! ثم لماذا لا يسمى الهبوط باسمه الحقيقى وهو الهبوط ؟!

ثم .. تبعثرت الاتجاهات الفنية فى الفترة الأخيرة .. ولكنها حافظت على طابع واحد .. هو الهبوط !

من السريالية إلى الوجودية إلى اللامعقول .. إلى أدب الجنس المكشوف ..

أما السريالية فقد تتبعت التلحيل النفسى الذى أنشأه فرويد وقال فيه إن حقيقة النفس الإنسانية ليست فى النفس الواعية التى تتعامل مع الواقع الخارجى ، إنما هى فى العقل الباطن الذى لا ترتيب فيه ولا منطق ! فحاولت فى نماذج أقرب إلى الخبل منها إلى العقل أن تبرز " حقيقة النفس الإنسانية " ! فلم تصنع شيئا فى الحقيقة إلا بعثرة هذه النفس إلى قطع متناثرة لا دلالة لها ولا معنى ولا طعم .

وأما اللامعقول فقد كان هروبا من " المعقول " هروبا من العقلانية التى طغت على الفكر والحياة الأوروبية ، ومحاولة للقول بأن الحياة ليست معقولة .. ليس لها هدف ..ليس لها نظام .. ليس لها منطق .. ليس لها غاية .. إنما تحدث فيها الأحداث لمجرد الحدوث ! وحين تحدث فإنه يكون لها ثقل " الواقع " . ولكن حدوثها وعدم حدوثها سيان ! وحدوثها على

هذه الصورة وحدوثها على صورة أخرى سيان ! لأن كل الصور تتساوى فى عدم المعقولية وفى الافتقار إلى معنى واضح وغاية واضحة .

ولقد كان هذا تعبيرا باطنيا حقيقيا عن أن الحياة فقدت معناها وفقدت غايتها حين فقدت الخيط الذى ينظمها جميعا وينظمها ويفسر غايتها ويفسر أحداثها ، وهو الدين .. ولكن الجاهلية لا تدرك ذلك ، وتأخذ الأمر على أنه مجرد فن ! أو إن أدركت فإنها تدرك أن الحياة البشرية أصبحت فى حاجة إلى " فلسفة " جديدة تعطيها معنى وتعطيها غاية ، بشرط ألا تكون هذه " الفلسفة " مستمدة من الدين !!

وأما الوجودية فهى أخبث من ذلك لكه .. ولا تنس أن سارتر – " الكاتب الإنسانى الغظيم " – يهودى من أم يهودية .

تقول وجودية سارتر إن الكون والحياة لا هدف لها ولا غاية .. ولا عدل فيها ولا حق . إنما كله ضلال وعبث . وإن الوجود الإنسانى ضياع كله ، ومن المستحيل أن يحقق الإنسان فيه وجوده !

وإلى هنا نستطيع أن نقول إن هذا أيضا تعبير باطنى صادق عن فقدان الحياة معناها وهدفها حين تفقد العنصر الذى يوجد الترابط بن أجزائها ويعطى أحداثها تفسيرها ومعناها وهو الدين .

ولكن وجودية سارتر لا تقف عند تسجيل الضياع والعبثية وفقدان المعنى والغاية .. ولكنها تقدم حلا للمشكلة ! وياله من حل !

الحل أن يعيش كل إنسان وحده ، وأن يحقق وجوده بأن يفعل م يرى هو أنه حق وأنه واجب وأنه حسن !

فى مسرحيته " الجحيم هو الآخرون " يرسم الجحيم فى نفس إنسان – إذا كان إنسانا ! – يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها من جود آخرين لا يكفون عن الوجود من حوله ، ويفرضون عليه أن يكونوا موجودين معه ، فيمنعونه أن يكون نفسه .. أن يحس بذاتيته .. أن يفعل ما يمليه عليه هواه الشخصى . فيظل ساكنا ساكتا يتعذب . يتطلع إلى اللحظة التى

يذهب فيها عنه " الآخرون " لينطلق بوجوده الذاتى ، ليحقق ذاته .. وكلنهم لا ينصرفون .. فيظل هو فى الجحيم !

أما أدب الجنس المكشوف – إن كان يسمى " أدبا " – فو واضح من أن يحتاج إلى تعليق !

وفى تاريخ البشرية كله ط آداب " تعالج الجنس بقصد الإثارة ، أو تعبر عن تجارب هابطة لإنسان شهوان .. ولكنها كانت تأخذ فى عالم الأدب مكانا منزويا ، يتستر بها صاحبها فى الظلام ، ويسقط عمن يتعاطونها رداء التوقير والاحترام ، ويقبل عليها ط المراهقون " من أى عمر كانوا ، فليست المراهقة فترة معينة من عمر الإنسان كما هى فى اصطلاح علم النفس ، إنما هى حالة نفسية غير مستقرة وغير متزنة يمكن أن يصاب بها الفتى فى إبان طيشه ، ويمكن أن يصاب بها ابن السبعين .. فتخف أحلامه ويذهب وقاره وتذهب عنه قدرته على الحكم المتزن على الأشياء ..

ولكن الجديد الذى أحدثه " التطور " العلمانى هو إعطاء " الشرعية " لهذا الهبوط الحيوانى ، وكشفه فى النور ، وإعطاؤه صفة " الفن " ، ووضع منتجيه فى قائمة المشاهير ، بل فى قائمة العظماء من الفنانين ! وينشغل النقد الأدبي والنقد الفنى بتتبع آثارهم وكشف جوانب العظمة الفنية فيهم .. بل يتبجح نقاد فيبحثون لهم عن عظات " نفسية " فى وسط الماخور الكبير الذى يعيش فيه هؤلاء وهؤلاء من نقاد و" فنانين "

لقد سقط " الإنسان " كله إلى السراديب ، وقرر المقام هناك ، وأضاء الأنوار على قاذوراتها وعرضها على أنها " البضاعة الحاضرة " ! ولم تعد سرا يستخفى منه . لم تعد قذارة تستنكر .ز لم تعد شيئا يتقزز منه الناس .

أرأيت إلى دودة الأرض اللاصقة بالطين ؟! إنها تستروح أنسام المستنقع الآسن الذى تعيش فيه ، وترى أنه بالنسبة لها هو الوضع الطبيعى .. هو الأصل الذى ينبغى أن تعيش فيه !

أرأيت لو أنك أردت أن ترفعها من الطين وتنظفها ؟

إنها تستنكر وترفض .. وتتفلت من بين أصابعك لتزداد لصوقا بالطين !

وهكذا لم يعد أدب الجنس المكشوف قذارة يترفع عنها الفن . إنما صار هو الفن الذى يتفنن فيه الكتاب ، يعرضون مفاتنه – أو بالأحرى مباذله – فى تفصيل دقيق مكشوف ، ويعرضونه على أنه قاعدة الحياة أو قمة الحياة !

هل هى عدوى " فرويد " فى عالم الفن ؟

لاشك أن فرويد مسئول عن البداية التى ابتدأ بها هذا الفن الهابط . وقد كانت البداية هى قصة " عشيق ليدى تشاترلى Lady Chatterly's Lover للقصاص الإنجليزى د . هـ . لورنس D. H. Lawrence المتتلمذ على فرويد ، والذى يعتبر هو نفسه " حالة فرويدية " . تلك القصة التى صودرت وصودرت وصودرت .. ثم أبيحت مع حذف الجزء الشديد الإفحاش منها . ثم أبيحت مع جزء منه .. ثم أبيحت كاملة كما هى .. عارية من كل حياء .. وطبع منها ملايين !

ولكن فرويد وحده لا يكفى لتفسير كل ذلك الهبوط ..

إنه الانسلاخ من الدين ، الذى يسمى " العلمانية " !

ففرويد لم يكن يتصور – وإن تمنى – أن تأتى يوم تعرض فيه العملية الجنسية على المسرح بوصفها جزءا من مسرحية " فنية " ! ثم ينقلها التليفزيون على شاشته ليراها الأولاد والبنات فى البيوت !

وذلك إلى آلاف وآلاف من المسرحيات والقصص والأفلام والأغانى والصور والصحف والمجلات ، لا تعرض شيئا إلا الجنس ، ولا تعرضه إلى وضع الحيوان .

تلك هى العلمانية فى مجالات الحياة المختلفة .. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والعم والأخلاق والفن .. ولك نشاط يمكن أن يصدر عن " الإنسان " إن كان قد بقى له بعد ذلك كله مكان فى عالم " الإنسان "!

وتقول العلمانية – الغربية على الأقل – إنها لا تحارب الدين ! فمن شاء أن يتدين فليتدين ! وانظر حولك تجد متدينين بالفعل لا تتعرض لهم العلمانية من قريب ولا من بعيد !

أرأيت لو أن إنسانا أطلق حولك كل أنواع الجراثيم الموجودة فى الأرض ، فى الهواء الذى تتنفسه . فى الماء الذى تشربه . فى الطعام الذى تأكله . فى الوجود الذى تلمسه . ثم قال

لك إن أردت أن تظل سليما معافى فكن كما شئت ، فنحن لا نتعرض لك ! كم يكون قوله مسخرة المساخر ، وكم يكون مغالطة مكشوفة ؟!

وذلك فضلا عن أنه فى عرف نفسه لا يعتبر ما يطلقه من حولك جراثيم .. بل يعتبرك أنت الجرثومة التى يخشى منها على كيانه ، والتى لم يستطع أن يقضى عليها قضاء كاملا فتركها وهو يتمنى – من الشيطان – أن تزول !

{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [سورة النساء 89/4]

إن الدين – حتى بمعناه الغربى المشوه – لم يعد له مكان فى العلمانية المعاصرة .

فإذا كان قد أخرج من عالم الاقتصاد ومن عالم الاجتماع ومن عالم العلم ومن عالم الأخلاق ومن عالم الفن .. فماذا بقى له من واقع الحياة وماذا بقى له من النفس الإنسانية ؟!

بقيت له ساعة فى الكنيسة من يوم الأحد من كل أسبوع عند أفراد من الناس !

نعم .. ولكن ما الدين حتى بالنسبة لهؤلاء ؟

هل له واقع فى حياتهم ؟

هل يمنح قلوبهم الطمأنينة اللازمة لحياة الإنسان .. الطمأنينة التى تتنع التمزق النفسى وتمنع القلق والاضطراب ؟

هل يمنح وجودهم معنى يحميهم من الإحساس بالضياع ؟

هل يمنحهم تصورا للكون والحياة والإنسان غير التصور المادى الذى تقدمه العلمانية الجاهلية ؟

لو سألت أولئك الخارجين من سماع الموعظة يوم الأحد عن رأيهم الدينى فى التعاملات الاقتصادية الربوية اتى تقوم عليها حياتهم فهل تجد عند أحد منهم تحريما لها أو استنكارا لقيامها ؟ أم يقول لك قائلهم : هذه مسألة اقتصادية .. ما علاقة الدين بالاقتصاد ؟!

ولو سألت أحدا منهم : ما رأيك فى كذب الساسة بعضهم على بعض فى السياسة الدولية ، وعلى شعوبهم فى السياسة الداخلية ؟ ومت رأيك فى الالتزام الحزبى الذى يلزم صاحبه بالمعارضة أو التأييد حسب وضع حزبه من السلطة ؟ وما رأيك فيما تكتبه الصحافة

السياسية بقصد التشويش على الحقائق لا بقصد إظهار الحق ؟ أل يقول لك على الفور إن هذه مسائل سياسية .. ولا دخل للدين بالسياسة ؟!

ولو سألت الفتاة وصديقها الخارجين من " الصلاة " ما قولكما فى العلاقة القائمة بينكما ؟ ألسي الدين يحرمها ؟ ألا يقولان لك إن الدين مسألة اعتقادية ولا علاقة له بالعلاقات الاجتماعية ؟! إن لم يقولا لك – كما يقول الكثيرون والكثيرات – إن الجنس مسألة بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالدين ولا علاقة لها بالأخلاق ؟!

كلا ! ما يزيد " الدين " فى ظل العلمانية على أن يكون مجرد وجدانات حائرة لا تلبث أن تتبدد وتضيع فى الدوامة العاتية المعادية لكل ما يأتى من عند الله !



العلمانية والإسلام

إذا صحت دعوى العلمانيين فى الغرب بالنسبة للدين الكنسى أنهم يتعايشون معه ويتعايش معهم دون تدخل من أحدهما فى شؤون الأخر – وهى كما رأينا ليست صحيحة فى الحقيقة– فإنها بالنسبة للإسلام لا تصح على الإطلاق !

لقد كان الدين الكنسى منذ اللحظة الأولى دينا يهتم بالآخرة ويدير ظهره للحياة الدنيا ، نتيجة ما دخل فيه من تحريف فصل الشريعة فيه عن العقيدة ، وجعله عقيدة صرفا إلا فيما يتعلق بالأحوال الشخصية .. ومع ذلك فقد كان العمل من أجل الآخرة يلقى أثره على الحياة الدنيا ، قصد الناس أم لم يقصدوا ، ووعوا ذلك فى إدراكهم أم لم يعوه ، فكان ذلك الدين – رغم التحريف الضخم فى كل جوانبه – يعطى أثارا واقعية فى حياة الناس وسلوكهم ، وتصوراتهم ومشاعرهم ، وهى التى جاءت العلمانية لتزحزحها من مكانها رويدا رويدا حتى أجلتها إجلاء كاملا ، فلم يعد للدين عند الأكثرية العظمى من الناس فى الجاهلية المعاصرة مكان على الإطلاق ، وبقى عند الأقلية " المتدينة " مجرد مشاعر ووجدانات ، وعلى الأكثر بعض " العبادات " ولكن هذه وتلك لا تحكم شيئا فى واقع الحياة . وبهذا وحده – أى بمسخ الدين على هذه الصورة المزرية – أصبحت العلمانية تتعايش – على مضض ! – مع

الدين ! وقد كان هذا مسخا بالنسبة للدين الكنسى ذاته ، الذى شوهته الكنيسة حتى قطعت صلته بالأصل السماوى .. فكيف يكون الأمر بالنسبة لدين الله الحق ؟!

إن الدين احق لا يمكن ابتداء أن يكون عقيدة مفصولة عن الشريعة .. فالالتزام بالشريعة – فى دين الله الحق – هو مقتضى العقيدة ذاتها . مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. بحيث لا تكون الشهادة صحيحة وقائمة إن لم تؤد عند صاحبها هذا المعنى ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله ، والتحاكم إلى شريعة الله ، ورفض التحاكم إلى أى شريعة سوى شريعة الله .

{فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (65)} [سورة النساء 65/4]

يقول ابن تيمية فى كتاب الإيمان (ص 33 من طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة) :

" والمقصود هنا أن كل ما نفاه الله ورسوله من مسمى أسماء الأمور الواجبة كاسم الإيمان والإسلام والدين والصلاة والطهارة والحج وغير ذلك فإنما يكون لترك واجب فى ذلك المسمى .. ومن هذا قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فلما نفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية دل ذلك على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد " .

لقد نزل هذا الدين ليعطى التصور الصحيح لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وليقيم فى عالم البشر واقعا محكوما بهذا التصور ، منبثقا عنه ، مرتبطا به ، متناسقا معه فى كلياته وجزئياته ، ولا يتصادم معه ولا ينحرف عنه .

فالله الخالق البارئ المصور ، الرازق المحيي المميت ، المدبر اللطيف الخبير ، عالم الغيب والشهادة .. بكل أسمائه وصفاته الواردة فى كتابه المنزل ، هو المتفرد بالألوهية والربوبية ، وهو المستحق للعبادة وحده بغير شريك ..

وكل ما فى الكون وكل من فى الكون غيره سبحانه هم خلقه وعباده .. واجبهم عبادته وحده بغير شريك .

والإنسان واحد من خلقه .. متميز .. نعم .. مكرم نعم .. ذو وعى وإدراك وإرادة وفاعلية .. نعم . ولكنه مخلوق من مخلوقات الله ، واجبه ككل خلقه الآخرين محصور فى عبادة الخالق وحده بغير شريك .

ولقد كرمه الله بالوعى والإدراك والإرادة والفاعلية ، وأعطاه قدرا من الحرية فى تصرفاته الإرادية يملك به أن يسير فى طريق الطاعة وأن يسير فى رطيق العصيان .. ولكنه لا يرضى من عباده إلا أن يعبدوه :

{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [سورة الزمر 7/39]

والذى يقرر العبادة المفروضة على كل كائن من الكائنات هو خالق الكائنات جميعا ، الذى خلقها وحده بغير شريك ، ومن تفرده بالخلق ينشأ انفراده بالحاكمية :

{أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [سورة الأعراف 54/7]

وبحق الحاكمية الناشئ من التفرد بالخلق أمر الإنسان أن يعبده وحده ويخلص العبادة له :

{إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} [سورة يوسف 40/12]

{أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} [سورة الزمر 3/39]

{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (11)} [سورة الزمر 11/39]

وإخلاص العبادة يقتضى الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه وتعالى ، ويقتضى توجيه الشعائر التعبدية له وحده ، ويقتضى كذلك التصديق بكل ما جاء من عنده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، والاحتكام إلى شريعته وحدها دون الشرائع الجاهلية التى يصنعها البشر من عند أنفسهم دون سلطان من الله والإخلال بأى واحدة من هذه الثلاثة يوقع الإنسان فى الشرك ويخرجه من دائرة الإيمان :

{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} [سورة النحل 35/16]

كما قالوا : {أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5)} [سورة ص 5/38]

فهذه هى الثلاثة التى أوقعتهم – أساسا – فى الشرك : توجيه الشعائر التعبدية لغير الله ، والتحليل والتحريم من دون الله ، والاعتقاد بوجود آلهة مع اله ..

وكلها مجتمعة شرك ، وكل واحدة بمفردها شرك لا يستقيم معه إيمان ..

والمعاصى تقع من البشر جميعا : كل بنى آدم خطاء " [١٤]"

ولكنها لا تخرجهم من الإيمان باتفاق علماء الأمة ..

إلا أن يجعلوها شرعا فعندئذ يكفرون بها . بل هم يكفرون بالتشريع ولو لم يرتكبوا المعصية بأنفسهم .. فالذى يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر بقطع يد السارق ولكنى أرى أن العقوبة المناسبة للسارق هى السجن – وهو ما تفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر بذلك وإن لم يسرق بنفسه ولم يفكر فى السرقة .

والذى يقول – بلسانه أو بفعله – إن الله أمر برجم الزانى المحصن وجلد الزانى غير المحصن ، ولكنى أرى أنه لا عقوبة على الزنا إذا كان برضى الطرفين البالغين الراشدين (أى لم تكن الفتاة قاصرا) ولم تقع شكوى من أحد الزوجين ؛ فإن كان هناك اغتصاب أو اشتكى أحد الزوجين فالعقوبة هى السجن – وهو ما تفعله العلمانية الجاهلية – فقد كفر بذلك وإن لم يرتكب الفاحشة بنفسه ولم يفكر فى ارتكابها ..

وكذلك كل شرع من شرع الله ..

من اعتقد بأفضلية غيره عليه ، أو حتي مساواته معه ، فعدل عنه إلي غيره ، أورضي بغيره ولم يجاهده بيده أو بلسانه أو بقلبه فقد خرج من دائرة الإيمان ، وأن صلي وزعم أنه مسلم !

{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49) أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (50) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ

" [١٤] " رواه أحمد .

وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ (51)} [سورة النور 51-47/24]

{فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ} [سورة النساء 65/4]

" إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كرة فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضي وتابع "

" فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبه خردل "

فإذا كان هذا أمر الله ورسوله فأني يقول قائل إن الإسلام يمكن أن يلتقي مع العلمانية التي تقول : لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ؟! أو تقول إن الاقتصاد لا علاقة له بالدين .. أو تفصل بين حكم الدين وبين أي شي في حياة الإنسان ؟![١٥]

[١٥] أنظر تفصيلا لهذه القضية في كتاب ، مفاهيم ينبغي أن تصحح